

الممر المحكم الإغلاق إلى المستقبل الشيوعي

لم يتوقف التاريخ فيما مضى أمام ممر مغلق كما يتوقف اليوم رغم كل التقدم الهائل الذي حققته البشرية في مختلف حقول الفكر والعلوم في القرن الأخير والتطور الكبير في أدوات الإنتاج، التي هي عجالات قاطرة التاريخ، كما في مصادر الطاقة مثل الطاقة الكهروذرية الهائلة التي لم يحلم بمثلها ماركس أو لينين. هناك من ينكر أن البشرية تواجه اليوم مثل هذا الإغلاق على مسار تطورها وعبئاً تناقض مثل هذا النفر بمبادئ رئيسة في علم الإقتصاد وعلم الاجتماع، فهو لا يريد أن يفهم طالما أنه اعتاد على الحياة الاستهلاكية التي تسمح له بأن يستهلك أضعاف ما ينتج على حساب الآخرين، بل هو لن يقبل أن يتوقف الآخرون عن تسليفه أكثر قبل أن يسدد ما استلف حين يتوجب عليه أن يعود يعيش على أقل مما ينتج. عبئاً تناقض مثل هؤلاء القوم بأمور لا يريد أن يفهمها لكن يكفي استحضار صورة من تاريخ القرن العشرين في نصفه الأول حين كان العالم منقسماً إلى معسكرين متصارعين، والصراع هو دلالة الحياة، فكان المعسكر الرأسمالي يستعمر العالم ويملؤه من فائض إنتاجه ويشغل شعوبه في إنتاج المواد الخام، وبالمقابل كان المعسكر الاشتراكي المتمثل بالإتحاد السوفياتي يحقق الأعاجيب في التطور وفي الإنتاج. هكذا كان العالم يسير مسرعاً على طريق التطور. صورة اليوم هي صورة الموات عكس صورة الحياة بالأمس القريب. صورة اليوم تكاد تكون بلا صراع وهو علامة الموت. يحار المراقبون والمحللون الاستراتيجيون في ترسم التناقض والصراع في جسد العالم المائل اليوم ولا يعثرون على أي حراك فيه. وعندما يدعي أحدهم بأن ثمة صراعاً بين البروليتاريا منتجي البضائع من جهة، وبين البورجوازية المنتجة للخدمات من جهة أخرى لا تجد من يصدقه وكان العالم ميت تماماً ليس فيه بقية من حياة. وبالمقابل ينبري هؤلاء المراقبون والمحللون الاستراتيجيون يستهلون العولمة في البحث عن التناقض الرئيس في النظام الرأسمالي بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج بالرغم من أن العولمة كما يقدمونها هم أنفسهم هي انتقال شركات الإنتاج الرأسمالية من المراكز الرأسمالية الامبريالية إلى الأطراف بحثاً عن الأيدي الرخيصة، وهو ما يعني العكس تماماً مما يبحثون عنه وهو التناقض الرأسمالي الرئيس للإدعاء بأنه ما زال اللاعب الرئيس على المسرح الدولي. العولمة وكما يصفونها تعني مباشرة إزاحة التناقض الرأسمالي الرئيس من على خشبة المسرح الدولي إلى ما وراء الكواليس وانعدام أثره إلى حين، قد يكون بعيداً، كما هو حال عمال الصين وتايوان وسنغافورة وعمامة بلدان جنوب شرق آسيا المضيقة للشركات الهاربة من مراكزها الكلاسيكية. للأسف الشديد لم يكف مثل هؤلاء المحللين يساعدهم أنصاف الماركسيين عن إهدار الوقت في البحث عن التناقض بين قوى الإنتاج الرأسمالي وعلاقات الإنتاج الرأسمالية بالرغم من أن مختلف الإحصاءات الدولية تؤكد أن قوى الإنتاج الرأسمالي في حصون الرأسمالية الكلاسيكية وهي العمال البروليتاريا قد انخفضت بنسبة لا تقل عن 60%.

ستزهق روح العالم حال انهيار نظامه النقدي وانهياره اليوم بات على الأبواب فالدولار الأميركي قد فقد بريقه الرأسمالي بعد أن عصفت البورجوازية الوضيعة الأميركية بكل القوانين الرأسمالية وطبعت مئات المليارات من الدولارات مفرغة من كل قيمة رأسمالية. ستزهق روح العالم بعد أن أطاحت الطبقة الوسطى بالملك الدولار ولم يعد هناك في قوس الديون من منزع. ستعم العالم بلا ملك وبلا سلطة الفوضى التي لم تعان البشرية مثلها أبداً.

كانت البشرية سبّاقة عندما ظهر فيها ابن بار بها اسمه كارل ماركس يكتشف مبكراً في العام 1847 خارطة طريق لتقدمها الاجتماعي. كان النظام الرأسمالي ما زال في شرح الشباب ومع ذلك أكد ماركس أن النظام الرأسمالي يحمل في أحشائه بذور فنائه ولن يعمر طويلاً حين سينتهي بثورة اشتراكية عالمية. نظام العبودية عمّر أربعين قرناً، والنظام الإقطاعي عشرة قرون، أما النظام الرأسمالي فلم يعمر أكثر من قرنين. وفعلاً تكامل النظام الرأسمالي بصورته الكلاسيكية مع الثورة الصناعية 1750 وتكك عالمياً في العام 1975 وقد نُعي في إعلان رامبوييه (Rambouillet Declaration) حين اضطر قادة العالم الرأسمالي الخمسة إلى إخراج النقد (Money) عملياً من سوق التبادل، والنقد في السوق هو دم الحياة بالنسبة للنظام الرأسمالي. ألغى الخمسة الكبار (65) كل غطاء لنقودهم مقابل تعهد لفظي منهم بكفالة سعر ثابت لعملاتهم وفي هذا خرق فظ للقانون الأساسي الذي يقوم عليه النظام الرأسمالي وهو قانون القيمة الرأسمالية. أضف إلى ذلك أن جميع هذه الدول الخمسة غير مليئة حيث أنها اليوم مدينة بما يزيد عن مجمل إنتاجها السنوي وتعاني من عجوزات هائلة في ميزان مدفوعاتها. فالولايات المتحدة مثلاً، والتي تمثل الضامن الأول والأقوى لسائر عملات العالم حيث يلعب دولارها دور العملة الملك (King Currency)، تدير اليوم أسوأ وأقفر اقتصاد نسبياً حيث أنها المدين الأول في العالم إذ وصلت ديونها في يونيو حزيران 2012 إلى 15.8 ترليون دولاراً وإنتاجها يبلغ في دفاثرها 15.3 ترليون أي أن ديونها تعادل 103% من مجمل إنتاجها فقط، بينما ديون ألمانيا 4.7 ترليون ومجمل إنتاجها 3.3 ترليون أي أن ديونها تعادل 142% من مجمل إنتاجها وهو ما يعني أن خدمة الدين هي أعمق أثراً وأثقل عبئاً على ألمانيا منها على الولايات المتحدة غير أن الوقائع تقول العكس تماماً. تقوم ألمانيا حتى اليوم بتمويل الدول المفلسة في الاتحاد الأوروبي بينما تترنح الولايات المتحدة بين عام وآخر على شفا الإفلاس إذ كان الرئيس الأميركي قد هدد الكونجرس قبل شهرين بأنه سيعلن الولايات المتحدة دولة مفلسة - وصفه كأخطر قرار بتاريخ الولايات المتحدة - إن لم يوافق على رفع سقف الدين بمقدار 2.5 ترليون دولاراً ليبلغ 18.3 ترليوناً.

سر العلة في الاقتصاد الأميركي يكمن في إنتاج واستهلاك الخدمات. يجري إنتاج الخدمات من خلال استهلاك قوى عمل وبعض المستلزمات المادية غير أن استهلاكها وهو ما يتم عملياً قبل اكتمال إنتاجها - الخدمات لا تصل إلى السوق ولا تكتسب الصفة الصنمية كما السلع - لا ينتج ثروة ولا يضيف نقيراً إلى الثروة الوطنية. الخدمات تستهلك الثروة ولا تنتجها. أكثر من 80% من مجمل الانتاج الأميركي هو من الخدمات وعليه فإن مجمل الانتاج الأميركي ليس 15.3 ترليون كما هو على الورق فقط بل هو في الحقيقة 3 ترليون فقط والباقي 12 ترليون هي قيمة الانتاج السنوي من الخدمات التي تذهب أدراج الرياح ولا تضيف نقيراً أو دولاراً واحداً. الولايات المتحدة تنتج حقيقة سنوياً 3 ترليون دولاراً وتستهلك 4 ترليون عدا الخدمات، وعليه تزداد ديونها الخارجية ترليوناً واحداً كل عام. الحقيقة الأخرى التي يتوجب احتسابها وهي أن إنتاج الخدمات الأميركية لا ينفع في خدمة الدين، فالدولار المغطى بالخدمات مثله مثل الدولار المزيف الذي تطبعه الولايات المتحدة بغير غطاء، فهو يبقى ديناً على كاهلها يلزم إيفاءه مستقبلاً. استداننت الولايات المتحدة من جهات أجنبية دولارات حقيقية تحمل فعلاً قيمتها الرأسمالية الإسمية وعليها تسديدها بدولارات حقيقية وليست مزيفة أو خفيفة لا تحمل أكثر من 20% من قيمتها الرأسمالية في أفضل حالاتها.

وهنا يُثير عدد من المتابعين في هذا السياق سؤالاً يقتضي الاجابة عليه، وهو .. إذا كانت جميع الدول مدينة فمن هو الدائن ؟

الجواب على هذا السؤال المفتاحي يعود إلى ما قرره الخمسة الأغنياء في رامبويه 1975 حيث أعلنوا ضمانتهم مجتمعين لعملاتهم وهو ما يعني فصلها عن قيمتها التبادلية في السوق - وبعبارة الإعلان، عدم السماح بانخفاض قيمتها - مع أن الدولار الأميركي كان يعاني من انهيار مروّع أرغم إدارة نيكسون على الخروج من معاهدة الغطاء الذهبي (بريتونوود) في العام 1971 ثم إعلان خفض قيمة الدولار (Devaluation) مرتين في سنتين متتاليتين 1972 و 73 في مواجهة تدهور قيمته التبادلة في سوق العملات الأمر الذي دعا الدول الخمسة الغنية الكبرى (65) إلى عقد مؤتمر رامبويه وإعلانها ضمناً انهيار النظام الرأسمالي، الإنهيار الذي أخذ شكل الإقتصاد الاستهلاكي (Consumerism) من جهة والعولمة (Globalization) من جهة أخرى بدءاً بإخراج عملات هذه الدول وأولها الدولار من سوق التبادل مما مكنتها من إصدار ما شاءت من النقود دون تدهور قيمتها في الأسواق بفضل حمايتها بلعبة مصرفية تأمرت على لعبها الدول الخمسة الغنية لتنتج في سرقة شعوب العالم وعماله على وجه الخصوص. هذه الدول الخمسة الأغنى في العالم تمتلك أكثر من 70% من التجارة العالمية، ومنها ما يزيد على 20% للولايات المتحدة وحدها، ولذلك غدا الدولار العملة الملك حيث بالدولار فقط تجري جميع المبادلات التجارية في العالم. فحين تستورد الدانيمارك مثلاً وقوداً من روسيا بقيمة 6 مليار كراون فعليها أن تدفع للروس بالدولار وعليها إذآ أن تتدبر أمر توفير مليار دولار وهو ما يتم فقط بالتراضي المالي والسياسي مع الولايات المتحدة في نهاية الأمر. لكن الدولارات التي تقبضها روسيا هي نقود زائفة (Faked Money) طبعتها الإدارة الأميركية ووقع عليها وزير الخزانة الأميركي لكنه لا يضمنها ضمانتها تمثلت بتعهد لفظي صادر عن خمسة دول قبل نحو أربعين عاماً، وليس عن أميركا وحدها، ولا شيء يلزمها على الإيفاء به خاصة وأنها اليوم تتحاشى الانهيار الكلي عن طريق المزيد من الاستدانة. ليس الولايات المتحدة وحدها التي تصدر نقوداً لا قيمة لها بل إن عملات كافة الدول هي زائفة بالنتيجة حيث الدولار المزيف هو غطاؤها الرئيسي. فدولة كالسويد مثلاً تستهلك سنوياً من البضائع والخدمات ما قيمته حوالي 3.5 ترليون كرونا لكنها لا تنتج حقيقة أكثر من 1.5 ترليون والباقي وهو 2 ترليون قيمة خدمات أُنشئت بأوراق مالية لا قيمة لها حيث قيمتها خدمات مستنفذة، وقيمتها 2 ترليون كرونا مغطاة بدولارات مزيفة. وهكذا فإن الكتلة النقدية من الدولارات الزائفة في خزائن العالم وفي جيوب الناس هي بمجموعها ديون مطلوب من كافة الدول الإيفاء بها كما تقتضي شروط صندوق النقد الدولي والأنظمة النقدية.

العالم اليوم مدين بما مجموعه 70 ترليون دولاراً وهو ما يعني أن دول العالم، على تفاوت مستوياتها، استوردت بضائع وخدمات بقيمة 70 ترليون دولاراً، أو الأخرى بالقيمة الرأسمالية المفترضة لسبعين ترليون دولار، ولم تسدد أثمانها حتى اليوم. فالدول الرأسمالية سابقاً في أوروبا الغربية والولايات المتحدة وديونها تتجاوز نسبة 75% من ديون العالم صنعت رفاهاً زائفاً لشعوبها على حساب غيرها من الدول والشعوب. أنفقت هذه الدول ثلاثة أمثال أو خمسة أمثال ما تنتج يغطيها الدولار المزيف. لن تفلت هذه الدول من مسؤوليتها عن تسديد هذه الديون وأولى المهام التي يقوم بها صندوق النقد الدولي هي وضع الدول أمام مسؤولياتها في هذا الشأن. والتسديد لا يتم بالدولارات الزائفة بل بالبضائع ولذلك نرى الدول المعروفة حتى اليوم بالغنى تعجز عن خدمة ديونها بل تستزيد ديوناً كالولايات المتحدة الأميركية.

ليس هذا وحسب بل هناك ديون أخرى من نوع آخر تتمثل بالدولارات المزيفة غير المغطاة. بافتراض أن مجموع هذه الدولارات الموزعة في صناديق ومصارف العالم هي 60 ترليون دولاراً - إما أنها فعلياً أكثر من ذلك بكثير أو أنها أقل بقليل لكن لنفترض أنها بهذه الحدود كيلا نخرج عن دائرة المعقول - إن هذه الكتلة النقدية الهائلة صادرة عن وزارة المالية الأميركية وأميركا ليست مؤهلة بالتأكيد لإصدار كل هذه النقود وهي التي كانت على شفا الإفلاس في العام 1971 حين

اضطرت إلى الخروج من القاعدة الذهبية لمعاهدة بريتونود كما اضطرت إلى تخفيض قيمة الدولار مرتين في العامين التاليين، وكان هذا قبل أن تفقد نمط إنتاجها الرأسمالي، وقبل أن تهرب منها الشركات الرأسمالية الكبرى، قبل أن ينحدر إنتاجها المادي إلى ما دون 20% من مجمل إنتاجها. إن دولارات اليوم لا تساوي قيمتها الرأسمالية حقيقةً أكثر من 20% من قيمتها الرأسمالية حيث أن أمريكا ومنذ العام 1971 أعلنت عجزها عن غطاء نقدها واليوم لا يعطيه سوى إنتاج الصين الشيوعية و النفط والخليج وكلاهما يباعان بالدولار. إن 80% من الدولارات الأميركية المتراكمة في كل أركان الأرض إنما هي مجرد أوراق خضراء لا قيمة لها على الإطلاق. في بداية السبعينيات وكان إنتاجها الرأسمالي أغنى منه اليوم أعلنت الولايات المتحدة عجزها عن إصدار 10/1 كتلة دولاراتها الحالية، فكيف بها تصدر اليوم عشرة أمثالها مع أن إنتاجها الرأسمالي انخفض بنسبة 60% بفعل العولمة وتحول 65% من العمال الأميركيين إلى الطبقة الوسطى ينتجون الخدمات بصورة فردية والتي لا تخلق أية ثروة ولا تسد ديوناً!؟

الرفاه الذي أخذ يتبدى خلال العقود الثلاثة الأخيرة على شعوب الدول المؤتمرة المتأمرة في رامبوية، كما شعوب الدول المستظلة بمظلة الدولار المزيف، هذا الرفاه الاستثنائي ليس من إنتاج شعوب هذه الدول بل هو مستدان على شكلين من الديون وهي الديون الخارجية الموثقة لدى صندوق النقد الدولي وحصّة هذه الدول المرفهة الرأسمالية سابقاً منها هي 55 ترليوناً بالإضافة إلى مثل هذا المبلغ، أو أقل بقليل، من الدولارات المزيفة. الرفاه الذي أخذ يضيق في السنوات الثلاث الأخيرة إنما هو مصطنع ودين محدود الأجل تتجاوز قيمته 100 ترليون دولاراً. هل لهذه الدول أن تستمر مستغرقة في الحياة الاستهلاكية وتستدين مائة ترليون أخرى في 30 سنة أخرى قادمة؟! لا يمكن أن يكون ذلك حيث وظيفة النقد الأساسية هو تسهيل تبادل السلع. المائة ترليون دولاراً التي أنفقتها الدول المرفهة وهي مجموع الديون المسجلة والدولارات الزائفة إنما هي البديل النقدي لبضائع استهلكتها هذه الدول ولم تعد موجودة والنقد لا تتحقق قيمتها فعلياً إلا لدى دخولها في مبادلة مع بضائع وإلا فهي لا تسوى شيئاً. البضائع التي تبديلت بمائة ترليون دولاراً استنفذت ولم يبق منها ما يستحق الذكر، استنفذتها بالإجمال الطبقة الوسطى وقامت لقاء ذلك بخدمات لخدمة نفسها. فأى قيمة تبقى لهذه الأموال الطائلة بكل المقاييس وبدلتها استنفذت نهائياً دون أن يحل محلها أية بدلات أخرى وهو ما يعني أن كل هذه الأموال الطائلة لم تعد لها أية قيمة؛ ما قيمة الأموال التي لا تشتري شيئاً؟ كيف لشعوب العالم أن تلقي بمائة ترليون دولاراً ليست مزيفة في البحر وتبدأ من جديد؟ إنتاج العالم يقدر اليوم ب 60 ترليون دولار، 70% منها خدمات والباقي 18 ترليوناً هو القيمة الرأسمالية للإنتاج. وعليه فإن استئناف الحياة من جديد بعد إسقاط الديون ورميها في البحر سيغدو مستحيلاً حين لا يستطيع الأوروبي الذي يشتري اليوم رغيف الخبز ببيورو أن يشتريه حينذاك بخمسة يوروات ودون أن يرتفع أجره لخمسة أضعاف أو حتى للضعفين على الأقل.

تجاوز مثل هذا الممر المحكم الإغلاق نحو المستقبل لن يتم إلا بتوافر شرطين يبدوان مستحيلين. الشرط الأول وهو أن تتخلى شعوب الدول المدينة عن حياة الرفاهية والاستهلاك الواسع السهل، والشعوب، كل الشعوب على مختلف حضاراتها على استعداد لأن تحطم النظام وتقلب الدولة قبل أن تتنازل عن طرائق عيشها ومستلزماتها. والشرط الثاني هو أن تعود هذه الدول إلى الإنتاج البضاعي، أي أن يعود العمال الذين تحرروا من قيد الانتاج الرأسمالي البضاعي وارتقوا إلى الطبقة الوسطى لينتجوا فردياً ولصالحهم تخصيصاً، أن يعودوا إلى الانتاج الجمعي البضاعي إما على الطريقة الرأسمالية أو الطريقة الاشتراكية ولغير صالحهم كأفراد في الحالتين إنما هو ضرب من ضروب المستحيل. إزاء مثل هذه المستحيلات تتعرف الإنسانية ولأول مرة في التاريخ على مثل هذا الممر المحكم الإغلاق إلى المستقبل.

(سنتقرب في الجزء الثاني من المقال احتمالات عبور البشرية لهذا الممر المحكم الإغلاق إلى المستقبل راجياً بذات الوقت جميع القراء الكرام المساعدة في مقاربة الموضوع بالغ الأهمية المتعلق بمستقبل البشرية إن أمكن)

(2)

كنت قد قلت في الجزء الأول من هذه المقالة أن .. " هناك من ينكر أن البشرية تواجه اليوم مثل هذا الإغلاق على مسار تطورها وعبثاً تناقش مثل هذا النفر بمبادئ رئيسة في علم الاقتصاد وعلم الاجتماع ". لم يتأخر مثل هذا النفر وخاصة أولئك من أنصاف الماركسيين في الاحتجاج الغاضب على ما ذهبت إليه من أن هناك ممراً محكم الإغلاق إلى المستقبل بادعاء أن القول بوجود مثل هذا الممر من شأنه أن يحبط الشيوعيين ولا يفيد إلا في تأخير الثورة الاشتراكية. هم يفترضون أن الثورة ما زالت في الأفق ولا ينقصهم إلا مزيد من الوعي وشيء من الحماس والحشد!! يُرثى حقاً لهؤلاء الشيوعيين أنصاف الماركسيين، فمزيد من الوعي من شأنه أن يهبط بهم إلى أرض الواقع ليتحققوا من الواقع المؤسف بل المحزن الذي يؤكد أن ليس هناك ثورة في الأفق. أما عن الإحباط فإن التحقق من مثل هذا الممر لن ينعكس على الماركسيين الحقيقيين بغير نشاط إضافي لمعالجة مثل هذا الإغلاق المحكم والتغلب عليه، وهو لا ينعكس بالإحباط إلا على قلبي الثقة بالعلوم الماركسية والمشتبهين بصحتها. وأن يخسر العمل الشيوعي أنصاف الماركسيين مبكراً خيراً من أن يخسرهم متأخراً.

في العام 1952 لم تكن الثورة الاشتراكية فقط في الأفق، بل كانت تدهم مختلف المجتمعات في العالم. ففي الاتحاد السوفياتي، حصن الثورة الاشتراكية وقائدها، يقرر المؤتمر العام التاسع عشر للحزب الشيوعي برنامجاً ينقل المجتمع إلى أعتاب العبور إلى الشيوعية مستغنياً عن تحالف البروليتاريا مع الفلاحين، وحين تتعدم فرصة البورجوازية الوضيعة للإرتداد على الاشتراكية في العام 56. أما في الولايات المتحدة فتتطور قوى الإنتاج في الحرب وفيما بعدها بقوى الإندفاع وصولاً إلى حدودها القصوى حيث مكنت الولايات المتحدة في نهاية الأربعينيات وبداية الخمسينيات من ملء العالم غير الاشتراكي بالبضائع وبالأموال (المال الحقيقي، ليس كمال اليوم المزور) وهو ما انعكس في ظاهرة المكارثية المجنونة إلى حد اتهام جميع الناس ومنهم حتى الرئيس ترومان نفسه بالشيوعية. وكان أن عمل الممثل رونالد ريغان جاسوساً مخبراً يقدم التقارير عن الممثلين في هوليوود وأنشطتهم اليسارية والشيوعية إلى لجنة مكارثي التي حاربت عشرات الممثلين الأكفيا بأعمالهم وأرزاقهم، وفي تلك الأجواء المشحونة تم إعدام الزوجين الشيوعيين جوليوس وإثيل روزنبرغ وهاجر شارلي شابلن من الولايات المتحدة وأقسم ألا يعود إليها طيلة حياته. كل ذلك كان يشير إلى أن الثورة الاشتراكية كانت تدق أبواب الولايات المتحدة. ما يجب عدم إغفاله في هذا السياق هو أن تراجع الثورة في الولايات المتحدة لم يكن بسبب أعمال لجنة مكارثي التي اكتسبت كراهية الشعب الأميركي والتنديد بها، بل كان بسبب الانقلاب الرجعي الذي قام به المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفييتي ضد الاشتراكية في سبتمبر ايلول 1953 وانعكس ذلك مباشرة في انطفاء وهج الاشتراكية على صعيد العالم.

السادة الشيوعيون من أنصاف الماركسيين الذين احتجوا بغضب شديد على ما ذهبوا إليه، على تأكيد الغياب التام لشبح الثورة من كل آفاق العالم، وهو عكس ما تصور لهم أحلامهم الوردية، أنصاف الماركسيين هؤلاء يقفزون عن حقائق كبرى لا يجوز حتى لنصف ماركسي أن يقفز عنها. لعل هؤلاء الرفاق من أنصاف الماركسيين لا يعلمون أن قائد البروليتاريا الأعظم يوسف ستالين كان أوصى الهيئة العامة للحزب في المؤتمر العام التاسع عشر قبل رحيله بثلاثة أشهر فقط، أوصى باستبدال المكتب السياسي للحزب بمختلف أعضائه بمن فيهم ستالين نفسه بشباب متحمسين للشيوعية لأنهم لم يعودوا يعملون للشيوعية. ما حدث فعلاً كان استبدال ستالين وحده وقيام أولئك الأعضاء من الخونة وأنصاف الماركسيين في سبتمبر ايلول 53 بثورة مضادة للإشتراكية وصلت إلى حد إلغاء كافة قرارات المؤتمر العام للحزب وهو ما لا يجوز القيام به في مختلف الأحوال وتحت كل الحجج إلا من باب الخيانة. تجلت الثورة المضادة في شتم ستالين وهو باني الاشتراكية من على منبر المؤتمر العام للحزب الشيوعي في العام 56، وفي الانقلاب العسكري وطرد البلاشفة من المكتب السياسي في يونيو حزيران 57، وإلغاء دكتاتورية البروليتاريا بإعلان رسمي (!!) في العام 59. ليس إلا هذا ما انتهى إلى انقلاب يلتسن في العام 1991 وتفكيك الاتحاد السوفياتي والسقوط المشين لما ظل يسمى زوراً بالحزب الشيوعي وهو لم يكن في الحقيقة سوى حزب البورجوازية الوضيعة بدلالة أن جميع أعضاء المكتب السياسي استقلوا رؤساء لجمهورياتهم وكشفوا عن وجوههم المعادية للشيوعية مثل رئيسهم غورباتشوف ابن عرافه خروشتشوف - كما كرّسه أنصاره حال إعلان مبادئه في البريسترويكا والغلانزوست. ظلت الثورة الاشتراكية في تراجع منذ العام 1953 حتى انطفأت رسمياً في العام 1991 وفعلياً قبل ذلك بكثير، عندما أزيح خروشتشوف بانقلاب عسكري أيضاً في العام 1964. ما الذي حدث منذ الإنطفاء الرسمي للثورة في العام 1991 وحتى اليوم ليسمح لأنصاف الماركسيين أن يتوهموا رؤية شبح الثورة الاشتراكية يظهر مجدداً في الأفق القريب؟ لا شيء، لا شيء على الإطلاق إلا التراجع وصولاً إلى التلاشي، ومن يدعي خلاف ذلك فليقله دون موارد أو موارد !!

عندما لا يجد أنصاف الماركسيين ما يسند حجتهم بتواجد الثورة الاشتراكية في الأفق، سرعان ما يهربون إلى البلدان المحيطة ليقوموا الثورة الاشتراكية فيها شاء ماركس أم لم يشأ وأبى إنجلز أم لم يأب. نعم، شباب الدول المتخلفة وقد أخذ بهم الحماس الجارف للإشتراكية صمموا بقيادة الثوري في جميع الأحوال الدكتور سمير أمين على إقامة الثورة الاشتراكية في الدول المحيطة ومحاصرة مراكز الرأسمالية لتتويرها طالما أن البروليتاريا في هذه المراكز قد تخاذلت ولم تقم بالثورة كما اشترط ماركس بغير حساب !! لماذا لا يتجاوز هذا الشباب المتحمس للإشتراكية ماركس وإنجلس ويبدأ بقراءة كتابهما من الصفحة الأخيرة؟ - وهنا لا يسع المرء إلا أن ينادي.. يا أيها الشباب المتحمس للإشتراكية أرفقوا بشعوبكم الفقيرة والضعيفة والتي ما زالت بحاجة لمساعدتها في توفير غذائها!!

الحقيقة الكبرى الثانية التي يقفز عنها الشباب المتحمس من أنصاف الماركسيين هي أن مشروع لينين في الاشتراكية السوفياتية لم ينته كلياً قبل أن يفك النظام الرأسمالي الإمبريالي بكل تفاصيله وهو ما انعكس في مؤتمر رامبوييه 1975 ومقرراته. أنصاف الماركسيين وهم اليوم العقبة الكبرى على طريق العمل الشيوعي لم يسمعوا قط بمؤتمر رامبوييه ولم يعرفوا أصلاً لماذا انعقد مؤتمر رامبوييه ناهيك عن مقرراته. أهم مؤتمر في التاريخ يعلن نهاية النظام الرأسمالي بعد قرنين طافحين بالصراع الطبقي، ويحدد مسار العالم منذ بداية الربع الأخير من القرن الأخير، لا يعرف هؤلاء القوم أسباب انعقاده ولا مقرراته بالغة الخطورة بل لم يسمعوا به من الأصل. هؤلاء القوم هم الذين ينهضون اليوم لإقامة الثورة الاشتراكية في الأطراف حتى وبدون بروليتاريا متجاوزين ماركس الذي اعتمد خطأً على البروليتاريا المتخاذلة في المراكز الرأسمالية

وليس على الشباب الصناديد عاشقي الاشتراكية في الأطراف. لكل ذلك وصف هؤلاء القوم بأنصاف الماركسيين ليس تجن عليهم بل إنهم يستحقون أكثر.

ماذا يعنيهم السر الكبير الذي أفضى به وزير الخزانة الأميركي لنظرائه الأربعة في إنجلترا وفرنسا وألمانيا واليابان في المحادثات التي جرت في مكتبة وزارة الخارجية في نوفمبر 1974 وقد فاجأهم بالقول أن النظام الرأسمالي في الولايات المتحدة على شفا الانهيار وفي حالة انهياره ستنهار معه الأنظمة الرأسمالية في بلادهم. ولذلك يترتب على الدول الغنية الخمسة (G 5) أن تتخذ التدابير اللازمة للحؤول دون وقوع الانهيارات. في قلعة رامبويه في باريس اجتمع قادة الدول الخمسة الكبار وأعلنوا تلك التدابير فيما سمي بإعلان رامبويه في 16 نوفمبر 1975. قومنا المتحمسون لتجاوز كارل ماركس ليسوا معنيين بتلك التدابير فيما إذا حفظت النظام الرأسمالي من الانهيار أم لم تحفظه !! ولماذا يقلقون بهذه "السفاسف" طالما أنهم قرروا بحماس شديد أن يتجاوزوا ماركس ويفككوا النظام الرأسمالي من أطرافه !! نقول لهؤلاء الفرسان الدونكيشوتيين .. مهلاً أيها الفرسان كلفوا خاطرهم بفحص "سفاسف" إعلان رامبويه، لعلها تكون قد قامت بالواجب قبلكم وعملت على الانهيار التام للنظام الرأسمالي، بل لعل انهياره جاء نتيجة حتمية لتطور الثورة الاشتراكية بقيادة ستالين على الصعيد العالمي مما أهلها لحمل ثورة التحرر الوطني على كاهلها وهي الثورة التي فكت روابط المستعمرات والدول التابعة مع مراكز الرأسمالية الإمبريالية فكان انهيار الرأسمالية أمراً محتوماً دون الحاجة لأية مؤتمرات ولأية قرارات. تفحصوا نهوضكم قبل أن تكونوا محط سخرية العالم وأنتم تحاربون طواحين الإمبريالية بسيوفكم الخشبية. تفحصوا لماذا يقرر مؤتمر الخمسة الكبار سحب عملاتهم من التداول الحر في السوق ومنع نفاذ قانون القيمة التبادلية على عملاتهم ! هذا القرار وحده يحكم أن النظام الرأسمالي العالمي لم يعد يعمل. النقد غير الخاضع لقانون القيمة التبادلية لا يعود يقوم بوظيفة النقد الوحيدة (Facilitator) وهي تسهيل دورة الإنتاج الرأسمالية (نقد = بضاعة = نقد). تفحصوا أيضاً قرارهم بإفاضة كل أموالهم في خزائهم المترعة على الدول الفقيرة المستقلة حديثاً وتداعيات ذلك القرار الخطيرة في مختلف الاتجاهات !! لماذا كان العالم، كل العالم، مدينياً ب 70 ليار دولار فقط في العام 75 ليصبح مديناً ب 3000 مليار في العام 82 !!؟

السياسة أيها السادة أنصاف الماركسيين إنما هي أدب الصراع الطبقي أو فكر الصراع الطبقي الذي يتقرر بكل تفاصيله وفقاً لعلاقات الإنتاج التي هي وسائل الإنتاج وقوى الإنتاج وهي بكلمة الإقتصاد. الثورة الاجتماعية إنما هي في الجوهر تبديل علاقات الإنتاج عندما لا تعود تقوى على حمل قوى الإنتاج المتنامية. أنصاف الماركسيين المتحمسين للثورة يتحدثون عن أزمة خانقة للنظام الرأسمالي حين يضطرون للدفاع عن استراتيجيتهم البورجوازية الوضيعة المغامرة. لأن كان الأمر بمثل ما يدعون بأن الرأسمالية الإمبريالية قد انتهت اليوم إلى أزمة كبرى خانقة، إذاً لماذا هم يتوجهون إلى الأطراف لصناعة ثورة فيها بعيداً عن المراكز الرأسمالية المتعاسة عن حل أزمتها، ولماذا تتعاس ؟

ثمة فراغ كبير بين الواقع المادي الذي تعيشه شعوب العالم اليوم وبين الفكر السياسي الاجتماعي السائد على صعيد العالم، الفكر الذي لا ينتمي للواقع المادي القائم. العلاقة الطبيعية الديالكتيكية بين البنية التحتية والبنية الفوقية منقطعة وغائبة تماماً اليوم. بدأ النظام الرأسمالي بالانهيار في العام 1971 إثر انفكك الدول المحيطة (البلدان المستعمرة والتابعة) من ربة التبعية للمراكز الرأسمالية بفعل حركة التحرر الوطني العالمية 1946 – 1972. اتخذ انهياره شكلين متزامنين، الإقتصاد الاستهلاكي (Consumerism) من جهة والعولمة (Globalization) من جهة أخرى. الإقتصاد الاستهلاكي حيث يتجاوز الاستهلاك الوطني الإنتاج الوطني بالعكس تماماً من النظام الرأسمالي حيث الإنتاج الوطني يفوق الاستهلاك الوطني. والعولمة حيث تنزح الشركات الرأسمالية من مراكز الرأسمالية العريقة إلى الأطراف وهو ما يفكك البنية الخلوية للنظام الرأسمالي فلا يعود المركز الرأسمالي مركزاً ولا يعود مأزوماً بمثل ما يتحدث أنصاف الماركسيين. رغم كل هذه الانهيارات الماثلة للأنظار بكل جلاء فإن الفكر القديم الذي ابتناه النظام الرأسمالي لم ينقش بعد. ما زال الكتاب والمحللون البورجوازيون ومعهم قطاعات واسعة من اليساريين المفلسين يقولون بالرأسمالية الإمبريالية التي ما زالت تسيطر على مجريات الأمور في العالم. لا يجوز لأدعياء الماركسية تحديداً وبسبب فشلهم الفاضح في إنجاز المشروع اللينيني في الثورة الاشتراكية العالمية أن يستمروا يרטونون بأفكار الخمسينيات ومواجهتهم للإمبريالية الشرسة. أدعياء الماركسية هؤلاء ومعهم كل المحللين البورجوازيين الذين يרטونون رطانتهم يضللون قوى التقدم في العالم ويدفعون بها لتخوض حرباً دونكيشوتية ضد طواحين الإمبريالية ! ليس هذا وحسب بل إن القوى الحية والواعية في الشعوب لا يتسنى لها جراً مثل هذه الرطانة التعرف على طبيعة الممر المغلق نحو المستقبل وهو الشرط اللازم لفتحه وعبوره. أن أي حديث لا ينطلق من أن انهيار النظام الرأسمالي قد غدا حقيقة واقعة لا مرأ فيها، وتعميم مثل هذا الحديث ليس من حديث العصر ولا يعمل غير عمل الدواء الغلط لعللة خطيرة تهدد الحياة.

أكتب عن صعوبة إنتقال الإنسانية من "النظام" الاجتماعي القائم حالياً في العالم إلى نظام آخر مختلف، عن الممر المحكم الإغلاق إلى المستقبل فلا ألقى إلا الصد والمعارضة. المعارضة ليست من قبل الفائزين بانتهاج التاريخ عند حدود الليبرالية واقتصاد السوق وحسب، وما أكثرهم اليوم بالرغم من أن عالم اليوم خالٍ تماماً من السياسة الليبرالية الكلاسيكية واقتصاد السوق، ولا ينتظر من هؤلاء البورجوازيين الوضعاء الصرحاء غير المعارضة بالطبع بحجة أن ليس هناك من ممر على الإطلاق وليس ممراً محكم الإغلاق موهوماً بزعمهم؛ بل المعارضة الفجة والغريبة تأتي من الشيوعيين سابقاً أيتام خروشتشوف وهم الذين شاركوا في دفع الاشتراكية السوفياتية إلى الإنهيار ولم يتعلموا الدرس مع ذلك بسبب أصولهم البورجوازية الوضيعة، وينضم إليهم أيضاً شيوعيو الهوى وليس الهوية المتعجلون إلى الشيوعية دون اعتبار لكل الظروف حتى ولا لتلك التي اعتبرها ماركس. كيف لشيوعيين يرفضون حتى النظر إلى صعوبة الانتقال إلى الاشتراكية وهم الذين فاجأهم على حين غرة انهيار الاتحاد السوفياتي، ومن المفترض أنهم تعرفوا على الصعوبات الهائلة التي عانى منها البلاشفة في معرض بناء اشتراكيهم، ومثالها ملايين الضحايا والدمار الشامل في الحرب ضد النازية، ولم ينجحوا في عبور الممر إلى المستقبل، إلى الشيوعية، وهو الممر الأقل صعوبة دون شك آنذاك من الممر الحالي.

من أجل عدم الإعتراف بصعوبة الممر الحالي والقفز عنه يتحدث شيوعيو الهوى المتعجلون عن ممر سهل و ممرات جانبية، وهو ما لا يستحضر إلا السخرية المرة. ليس من سبب وراء كل ذلك سوى أن هؤلاء الشيوعيين هم شيوعيون لكن بلا شيوعية. شيوعيون بالهوى وليس بالهوية.

ما هي الشيوعية؟ الشيوعية بعرف هؤلاء الشيوعيين بالهوى هي إقامة الحرية والعدل والمساواة بين الناس!! مثل هذا الهوى والذي يتمثل في مثل هذه الأفكار السطحية التافهة لا علاقة له بالشيوعية من قريب أو بعيد حيث في الحياة الشيوعية ستكون أفكار الحرية والعدالة والمساواة هي من الفكر المنقرض وفكر ما قبل التاريخ، فالشيوعيون حينذاك لن يكونوا بأدنى حاجة لأي معنى من معاني الحرية أو العدالة أو المساواة.

الشيوعية ليست فكرة هبطت على ماركس من السماء بل كانت في الأرض، وكانت أجمل إبنة للأمم الرأسمالية الشابة وقد أغرم بها كارل ماركس في أواسط القرن التاسع عشر. كان اسم هذه الإبنة (Mass Production) أو الإنتاج بالجملة. كان الرأسمالي يستأجر أعداداً من العمال يجمعهم في مكان واحد يشتغلون على ماكينة واحدة فينتجون سلعة واحدة بكميات وفيرة ذات قيمة تتجاوز قدرة المجتمع الشرائية. من هنا رأى ماركس تناقضاً صريحاً في دورة الإنتاج الرأسمالي حيث يتم الإنتاج بطريقة شيوعية يساهم كل المجتمع فيه، حيث السلعة الرأسمالية يساهم في إنتاجها كل شرائح المجتمع، بينما يعود مردود الإنتاج إلى الرأسمالي وحده. لذلك كان لا بد من أن شيوعية الإنتاج تترافق مع شيوعية المردود وإلغاء الرأسمالي ودوره في الإنتاج وإلا توقف هذا النمط من الإنتاج الشيوعي الذي يعود بالوفرة على سائر المجتمع. ذلك هو الأساس المادي الوحيد للشيوعية. كما رأى نبي الشيوعية، كارل ماركس، أن الجهة الوحيدة القادرة على إلغاء وجود الطبقة الرأسمالية ثم الطبقة الوريغوازية الوضيعة الطفيلية من بعد هي فقط دولة دكتاتورية البروليتاريا التي تجهز المجتمع خلال فترة قصيرة نسبياً للإنتقال إلى الحياة الشيوعية حيث يبدأ الناس، كل الناس، يفقدون الحاجة إلى أي شكل من أشكال الدولة وإلى الدستور والقوانين وإلى أية منظمة تختص بالردع وبالقمع مثل الجيش والشرطة، يفقدون الحاجة إلى الحرية والعدالة الاجتماعية وأي معنى من معاني المساواة.

في خارطة الطريق المكتملة التي رسمها ماركس للإنتقال إلى الشيوعية هناك ثلاث محطات رئيسية لا يجوز الاستغناء عن أي منها. المحطة الأولى وهي تواجد الإبنة الجميلة للأمم الرأسمالية التي هي الإنتاج بالجملة الذي تقوم به البروليتاريا فقط المنخرطة في الإنتاج الرأسمالي. والمحطة الثانية وهي استلام البروليتاريا للسلطة وإقامة دولتها الدكتاتورية. والمحطة الثالثة وهي محو الطبقات، الطبقة الرأسمالية أولاً ثم طبقة البورجوازية الوضيعة بالغ الصعوبة والتعقيد من بعد، وهو ما فشل الحزب الشيوعي السوفياتي في إنجازه وتسبب ذلك بانهيار الاشتراكية السوفياتية. لن تتواجد وتتوكل هذه المحطات الثلاث إلا في مراكز الرأسمالية. يشد بعضهم ليدعي أن روسيا القيصرية لم تكن من المراكز الرأسمالية المتطورة ومع ذلك شرع فيها البلاشفة بقيادة لينين بثورة اشتراكية. يفوت هؤلاء الأدعياء أن انتفاضة أكتوبر 1917 لم تكن ثورة ولم تكن اشتراكية بل كانت مجرد انتفاضة يقودها البلاشفة استكمالاً للثورة البورجوازية في فبراير 1917، وما حوّلها إلى ثورة اشتراكية في مارس 1919 هو البورجوازية ذاتها التي رفعت السلاح بوجه البلاشفة في مارس آذار 1918 فكان أن استطاعت البروليتاريا بتحالفها مع فقراء الفلاحين من سحق البورجوازية حتى العظم. ولدى إعلان الأممية الشيوعية الثالثة في مارس 1919 أكد لينين أن البروليتاريا الروسية قد برهنت على أنها أقوى من البروليتاريا في ألمانيا وفي بريطانيا. ولينين أول من يعترف بأن البروليتاريا الروسية ما كانت لتنتصر في الحرب الأهلية بغير تحالفها مع فقراء الفلاحين. ولذلك يمكن القول أن الطبقة التي فرضت الاشتراكية على المجتمع السوفييتي هي البورجوازية قبل البروليتاريا، بل إن مجالس السوفييت المفتون بها شيوعيو الهوى الكوميونيون (المجالسيون) المعارضون للإشتراكية السوفياتية لم تكن بطبيعة بنيتها

اشتراكية إذ كانت تتشكل جميعها من العمال والفلاحين والجنود والمتقنين وليس اشتراكياً بين هذه الفئات غير العمال الذين منهم أيضاً مناشفة واشتراكيون ثوريون وعلاقة هؤلاء بالاشتراكية إن لم تكن معدومة فهي واهية جداً.

وما ينسأه الكثيرون لدى مقاربتهم مشروعياً المشروع اللينيني هو أن روسيا القيصرية امتلكت من المستعمرات في العام 1913 ما يقارب القارتين حتى كانت الدولة الاستعمارية الثانية بعد بريطانيا العظمى. وأن إعلان مشروع لينين الاشتراكي كان في مارس آذار 1919 بعد أن كانت الدول الاستعمارية الكبرى في العالم قد أستنزفت حتى النفس الأخير في الحرب العالمية الأولى الضروس التي استمرت خمس سنوات 1914 – 1919. يضاف إلى ذلك الشروط الخاصة للمجتمع الروسي فالرأسمالية كانت يافعة غير مكتملة المخالب والأنياب وكانت طبقة الفلاحين الفقراء تشكل الجسم الرئيسي في هيكل المجتمع وكانت روسيا قد أصبحت وطن الماركسية الأول فكان الروس هم الأكثر في قيادة الأممية الثانية ومنهم لينين وبليخانوف، وكان حزب الشيوعيين البلاشفة عشية انتفاضة أكتوبر أكبر الأحزاب في أوروبا ويضم 240 ألف عضو يقوده رجل غير عادي هو فلاديمير إيليتش لينين. الظروف الخاصة جداً والاستثنائية التي أحاطت بمشروع لينين في الثورة الاشتراكية العالمية تخرجه من دائرة القياس فلا يجوز القياس عليه.

لم ينجح شيوعيو الهوى في اصطناع شرعية لهم والإدعاء بأنهم يمثلون القوى التقدمية في مجتمعاتهم عندما يحددون استراتيجيتهم العامة ببنية سياسية مجردة من كل أساس. القاعدة العريضة في المجتمع المشتغلة في الإنتاج لا تحفل بالبنية الفوقية السياسية وغير السياسية في النظام، أي نظام، ما يهمها هو البنية التحتية، وسائل الإنتاج وعلاقات الإنتاج وما ينعكس عليها مما يعينها على مواجهة الحياة ومصاعبها. شيوعيو الهوى يعلنون بكل صرامة أن استراتيجيتهم تتحدد اليوم بالديموقراطية الشعبية والتي هي بنية سياسية فوقية وليست ذات أولوية بين هموم الناس. يعلنون ذلك ويسكتون عن الكلام المباح وكأن بنيتهم السياسية ليست ذات بنية تحتية الأمر الذي من شأنه أن يفقدهم كل شرعية مدعاة فليس هناك من بنية سياسية إلا وهي وليدة البنية الاقتصادية، فهل ثمة بيضة دون دجاجة !!؟

شيوعيو الهوى مثلهم مثل شيوعيو الهوى يعلمون تماماً أن ليس هناك بيضة دون دجاجة وأن ديموقراطيتهم الشعبية هي ذات أساس اقتصادي، لكنهم مع ذلك لا يرغبون أو لا يجروؤن على إعلانه وفي هذا خداع لا يليق بمن يدعي الشيوعية أو هو جهل ينفي الشيوعية عن يدعيها. القاعدة الاقتصادية للديموقراطية الشعبية هي التنمية على طريق الوصول إلى الإشتراكية تحديداً وليس أي نظام آخر. ومثل هذه التنمية لا تتم إلا بالتعاون بين ثلاث طبقات رئيسة وذات مصالح متناقضة وهي العمال والفلاحون والرأسماليون. البنية التحتية للديموقراطية الشعبية هي التنمية وصولاً إلى الإشتراكية التي يرفضها الرأسماليون كما الفلاحون حيث أن أسس الإشتراكية الأول هو مصادرة الملكية التي هي قدس أقداس الرأسماليين والفلاحين. من هنا فإن الديموقراطية الشعبية لا تقوم إلا بتوافر أحد شرطين. أن يتحالف العمال والفلاحون والرأسماليون بتحالف يقوده حزب شيوعي قوي، أقوى من أحزاب الفلاحين والرأسماليين، أو أن قوى خارجية تضمن تقدم مثل هذا التحالف وأن تكون القوى الخارجية قوى اشتراكية كما كان الاتحاد السوفياتي هو الضامن لنظام الديموقراطية الشعبية في شرق أوروبا إثر الحرب العالمية الثانية.

في البلدان التي يرفع فيها شيوعيو الهوى شعار الديموقراطية الشعبية كما في سائر الدول العربية يُفقد نهائياً أي من الشرطين الضامنين لنظام الديموقراطية الشعبية. فليس هناك حزب شيوعي أقوى من الأحزاب شركائه في الوطن، بل إن الظروف المحلية والعالمية لا تساعد على ذلك، لم يعد هناك دولة اشتراكية عظمى تضمن استمرار تحالف الديموقراطية الشعبية.

ثم هب أنه رغم كل الظروف الموضوعية وغير الموضوعية كان هناك في إحدى الدول العربية أو الدول الصغرى حزب شيوعي قوي أقوى من الأحزاب المحلية الأخرى فهل ستكون الإشتراكية استراتيجياً محتلمة وتبني الإشتراكية في بلد صغير منعزل ومتواضع القدرات ؟ أن يكون مثل هذا الهوى على النهج الشيكسبيرري " جهد الحب الضائع / Love's Labour's Lost "

أكتب عن الممر محكم الإغلاق إلى المستقبل كي يعي أولئك الشباب المندفعين إلى المستقبل الإشتراكي صعوبة الممر المحكم الإغلاق الذي من المؤكد سيصطدمون به فيشج رؤوسهم الحامية وتبرد بعدئذ فلا يعودون اشتراكيين. ليس ما يحمي اشتراكية الإشتراكيين سوى الوعي، الوعي بمواجهة الأعداء والعقبات وتقدير قوى العدو حق قدرها، والممر محكم الإغلاق إلى المستقبل هو أكبر هذه العقبات وأصعبها.

ما كان الاتحاد السوفياتي لينهار لولا انحطاط الخائن خروشتشوف من قيادة الثورة الإشتراكية إلى قيادة ثورة البورجوازية الوضيعة المضادة. الثورة المضادة لم تتوقف بعد أن عصرت البورجوازية الوضيعة كل ما في خروشتشوف من تحريف ثم

ألفت به في حاوية الزبالة عام 1964. ترك خروشتشوف وراءه أيتاماً يستكملون التحريف وسد الطريق أمام الثوار الاشتراكيين. هؤلاء الأيتام وبعد أن تحققوا من أنهم وبقيادة عرابهم خروشتشوف قد أودوا بالمشروع اللينيني وبالثورة الاشتراكية، حتى أنه لم يعد لها أثر في عالم اليوم، أخذوا يغطون على خيانتهم الكارثية بالحديث عن الإمبريالية والصهيونية في دول شرق المتوسط. ليس من برهان على خيانة هؤلاء الأيتام، أيتام خروشتشوف، وسدورهم في التحريف، أكثر من أن الأحزاب الشيوعية في العالم بعيداً عن شرق المتوسط لا ترى الإمبريالية والصهيونية عدواً في مواجهتها - هل يرى الحزب الشيوعي في اليابان مثلاً أو في الولايات المتحدة أن عدوه في المواجهة هو الإمبريالية والصهيونية؟ الإمبريالية والصهيونية ليستا من أعداء الشيوعيين اليوم. هب أن الحزب الشيوعي اللينيني متحالفاً مع حزب الله دخلت قواتهما المسلحة الجليل، كما يهدد حزب الله، وزحفت إلى تل أبيب والقدس واستعادت فلسطين، كل فلسطين، للفلسطينيين يحكمها تآلف من فتح وحماس، فماذا ستكون البروليتاريا العالمية قد كسبت؟ لعلها ترد بالقول .. أنتم أيها الشيوعيون اللبنانيون طردتم البروليتاريا الإسرائيلية من المصانع لتتحول إلى جوامع لا يدخلها إلا العاملون لأجل الحياة الأخرى التي هي ليست حياتنا!! أيتام الخائن خروشتشوف يستكملون الخيانة فينقلون المعركة من مواجهة البروليتاريا لطبقة البورجوازية الوضيعة، وهي الطبقة التي قوّضت الثورة الاشتراكية اللينينية، إلى مواجهة مع طواحين الهواء اسمها الإمبريالية الصهيونية. لنا هنا أن نذكر هؤلاء الخونة التحريفيين بنداء لينين إلى زعماء الشرق الاسلامي المجتمعين في باكو - أذربيجان عام 1921 إذ خاطبهم بالقول .. " لن تنجحوا في التحرر من الإمبريالية بغير التعاون الوثيق مع البلاشفة والاتحاد السوفياتي ". نداء لينين تحول إلى حقيقة فما كانت ثورة التحرر الوطني لتحقيق الاستقلال السياسي الناجز لعشرات الدول ومنها الصين والهند لولا الانتصار الكبير الساحق للإتحاد السوفياتي في الحرب العالمية الثانية وحمايته الحيوية لثورات التحرر الوطني 1946 - 1972. اليوم نستعيد نداء لينين لنسأل أيتام خروشتشوف التحريفيين الخونة .. كيف لكم أن تنجحوا في التغلب على الإمبريالية الصهيونية بغياب البلاشفة والاتحاد السوفياتي!!؟ - هذا إذا كان ما زالت هناك إمبريالية كما يدعون .

وينحرف شيوعيو الهوى المتعجلون فيدعون إلى ثورة اجتماعية في بلدانهم المتخلفة. ولا تقل سخافتهم في هذه الناحية عن مثيلتها في ناحية الإمبريالية الصهيونية. يدعون إلى ثورة اجتماعية دون أن يفصحوا عن النظام الذي يبغون بناءه ولا الذي يبغون هدمه. هم بذلك يدعون إلى الثورة من أجل الثورة. لكأن هؤلاء القوم يبغون سفك الدماء ليس لغير صبغ الشوارع باللون الأحمر. لم يقولوا أي طبقة ستقوم بالثورة ضد أي طبقة أخرى. هؤلاء القوم المتعجلون المغامرون يدعون إلى ثورة اجتماعية بلا طبقات!! هكذا، نخبة ثورية ضد نخبة رجعية، ثورة نخب!! نخبة معروفة وهي شيوعيو الهوى ثوريون متعجلون وأبناء عمومة لأيتام خروشتشوف وأما النخبة المقابلة فغير محددة الهوية لكن ذوو الهوى يكثر الصراخ ضد الكومبرادور. حسناً، لنفرض أن هذه النخبة من شيوعيو الهوى استلمت السلطة بانقلاب دموي أحمر - هو دموي بالضرورة لأنهم نخبة قليلة - وألغت وظيفة الكومبرادور، فهل ستصبح عندئذ دولتهم هي الدولة الكومبرادور التي تستورد البضائع الأجنبية وتسوقها في سوقها الوطنية، أم أنها ستحول دون استيراد أية بضائع أجنبية ليعيش الشعب شظف العيش بقيادة دولة النخبة؟ أم أن الدولة ستقيم الصناعات البديلة من العدم ورغم أنف الإمبريالية المطرودة!!

حذار، حذار من شيوعيو الهوى المتعجلون ومن أيتام خروشتشوف الذين تخلوا عن الشيوعية فعلاً واحتفظوا بها إسماء!! لا الديموقراطية الشعبية ستقوم في بلاد مثل مراكش والجزائر والسودان ولا الإصلاح السياسي والاقتصادي الذي غدا استراتيجية أيتام خروشتشوف دون حياء أو خجل سيتم في العراق وفي لبنان وفي مصر وفي بلدان مثيله.

ما على شيوعيو الهوى أن يعتبروا منه هو أن أيتام خروشتشوف إنقلبوا إلى إصلاحيين بعد أن واجهوا الممر المحكم الإغلاق إلى المستقبل ووجدوا أنهم أعجز من عبوره.

(4)

الأحزاب الشيوعية من أيتام خروشتشوف التي لم تتفكك بعد، والتي ساهمت فعلياً بانهيار الاتحاد السوفياتي ومشروع لينين الاشتراكي، انقلبت إلى أحزاب بورجوازية اصلاحية تخون صراحة قضية الشيوعية ودون أن يندى لها جبين حتى أنه لم يعد بين اهتماماتها نداء ماركس لوحدة عمال العالم والثورة الاشتراكية. موقفهم هذا يأتي إنسجاماً مع خيانتهم واصطفافهم وراء خروشتشوف، لكنه بذات الوقت دلالة أكيدة على أن الممر إلى المستقبل محكم الإغلاق، ولولا ذلك لاضطروا للاعتراف بخيانتهم كيلا تفوتهم أكاليل الغار عند انتصار الثورة الاشتراكية العالمية التي هي على الأبواب كما يتخيلها شيوعيو الهوى المتعجلون. نحن لا نخاطب هؤلاء الخونة بعد أن غسلنا أيدينا منهم، بل نتوجه بخطابنا إلى شيوعيو الهوى المتعجلون إلى الثورة الاشتراكية نحذرهم من الممر المحكم الإغلاق إلى المستقبل كيلا يصطدموا به فيشج رؤوسهم الحامية وتبرد فلا يعودوا اشتراكيين وتكون نهايتهم كنهاية أيتام خروشتشوف المؤسفة. ثمة اختلاف نوعي بين شيوعيو الهوى وأيتام خروشتشوف، فشيعيو الهوى يصرون على تمسكهم بالماركسية وفق قراءة خاصة بهم بينما طلق أيتام خروشتشوف الماركسية طلاقاً بائناً وأعلن بعضهم بكل صفاقة، كقيادة الحزب الشيوعي السوداني، تخليهم عن الماركسية كمرشد لهم بحجة أن هناك أصحاب مدارس اشتراكية آخرين يمكن الاسترشاد بهم من غير ماركس من مثل برودوين ولاسال وأوين

وغيرهم. شيوعيو الهوى متعجلون دائماً لشدة هواهم للاشتراكية فيقرؤون ماركس مستعجلين مما أفقدهم الواقعية الماركسية فانقلبوا إلى طوباويين وأشبه بالمغامرين.

لنا هنا أن نسأل شيوعيو الهوى المتعجلين إلى الثورة الاشتراكية فيما إذا كان ماركس مخطئاً عندما أهاب بعمال العالم أن يتحدوا للقيام بالثورة الاشتراكية العالمية قبل أكثر من قرن ونصف. لماذا تنقضي مائة وأربعة وستون عاماً على ذلك النداء الشهير دون أن يقوم عمال العالم بالثورة الاشتراكية الموعودة؟ هل للمتعجلين إلى الثورة أن يفسروا كل هذا التأخير؟! وهل علينا أن نتخلى عن العمل الشيوعي بعد كل هذا التأخير مثلما تخلى أيتام خروشتشوف؟ لو كنا من شيوعيو الهوى المتعجلين لكان تخلينا أمراً منطقياً. ليس لشيوعيو الهوى أي حجة في اتهامنا باستهوال العدو أو الإغلاق المحكم للممر إلى المستقبل وإشاعة الإحباط بين الشيوعيين طالما أنهم يبدون عجزاً فاضحاً في تفسير تأخر الثورة الاشتراكية التي نادى إليها ماركس لأكثر من قرن ونصف القرن. شيوعيو الهوى يستعجلون الثورة لأنهم يقرؤون ماركس بعجلة فلا يعرفون حتى الشيوعية بجوهرها الحقيقي.

نعود مرة أخرى لنقف على ماهية الشيوعية التي اكتشفها ماركس في بطن النظام الرأسمالي. لقد رأى ماركس أن القيمة المضافة في الإنتاج الرأسمالي تزيد عن القيمة الكلية للأجور بمقدار فائض القيمة. لذلك يترتب على المجتمع أن يدفع القيمة التبادلية لكل الانتاج مجموع كامل الأجور مضافاً إليها شيئاً من مخزون ثروة المجتمع وانحداراً في صحة العمال وفعاليتهم. تكرار هذه العملية دون توقف ينتهي إلى مراكمة الأموال في خزائن الرأسمالي مقابل إفقار المجتمع حتى لا يعود قادراً على الاستمرار. تتراكم البضائع في السوق المحلية والشعب لا يعود قادراً على شرائها. إذًا تحدث أزمة النظام الرأسمالي وتصبح قاتلة للنظام عندما تكون عميقة. هنا تحديداً تكون الثورة الاشتراكية الشيوعية بقيادة البروليتاريا مستوجبة، وبغير ذلك لا ثورة ولا يحزنون.

هل حال الدول الرأسمالية الكلاسيكية اليوم هو هكذا؟ هل أسواقها زاخرة بالبضائع الوطنية والشعب غير قادر على شرائها كحال الأزمة الرأسمالية التي تحدث عنها كارل ماركس وقال أنها ستتسبب بانهيار النظام الرأسمالي بثورة اشتراكية تقوم بها البروليتاريا؟ الحال في سائر الدول الرأسمالية سابقاً هو العكس تماماً. البضائع الوطنية لا تلبى إلا جزءاً يسيراً من حاجات الشعب وقدرته الشرائية المستعارة مما يضطر الدولة إلى استيراد الباقي من الدول الأجنبية الأمر الذي انتهى إلى مديونية فلكية تنوء بها موازونات هذه الدول. فالولايات المتحدة التي كانت حتى الستينيات حصن الرأسمالية الحصين تستورد اليوم من الصين الشعبية ما قيمته 400 مليار دولاراً سنوياً ولا تصدر إليها أكثر من 200 مليار ويبقى 200 مليار أخرى عجزاً في ميزان المدفوعات الأميركي. الحقيقة التي تصفع القائلين بالأزمة الرأسمالية عن أزمة الرهن العقاري في أميركا في خريف 2008 على وجوههم هي أن القوة الشرائية المتعاظمة جراء رهن العقارات هي التي تسببت بإفلاس عشرات البنوك الكبيرة حيث أنفقت أكتاس الأموال في صناديق هذه البنوك وكانت تشتري كل البضائع الوطنية وضعفها من البضائع المستوردة. عن أي أزمة رأسمالية يتحدث هؤلاء المضللون والمضللون بذات الوقت؟!

المبدأ الأساس للرأسمالية هو الإتجار بقوى العمل البشرية من خلال تحويلها إلى ثروة، إلى سلع ذات قيمة تبادلية في السوق. فكيف يمكن أن تكون دولة رأسمالية وهي تستدين لتلبية احتياجات شعبها وتصل ديونها لى أكثر من 150% من مجمل إنتاجها السنوي وتنتهي عاجزة عن خدمة ديونها؟! 80% من قوى العمل في الولايات المتحدة لا تتحول إلى ثروة حيث تعمل في إنتاج الخدمات التي لا تضيف فقيراً إلى الثروة. عشرات الألوف من موظفي البنوك في الولايات المتحدة لا ينتجون سنوياً واحداً إذ أن مئات المليارات التي تجنيها البنوك من المقترضين ويغطي جزء منها أجور الموظفين لديها إنما هي من إنتاج العمال العاملين لدى المقترضين. مثل هؤلاء هم ملايين العاملين في الجيش وفي الشرطة وكذلك العاملون في الخدمات الصحية والتعليمية. هؤلاء وأمثالهم يعملون في خدمة الانتاج المادي ولا ينتجون. أثناء ازدهار النظام الرأسمالي كما في النصف الأول من القرن العشرين كان الرأسماليون لا يسمحون بإنتاج الخدمات إلا على مقدار خدمة إنتاجهم المادي البضاعي وهو ما يسمح بتسهيل دورة الانتاج الرأسمالي ليس أكثر فينقلب إذًا إلى معوق لدورة الإنتاج فالسلعة كلما حملت في جوفها خدمات أكثر كلما أعرض عن شرائها المتسوقون. في عشرينات القرن الماضي لم يكن أكثر من 20% من قوى العمل الأميركية تعمل في إنتاج الخدمات و 80% تعمل في الإنتاج البضاعي وكان الأميركيون لا يجدون خدمات صحية وتعليمية عامة. في العقود الثلاثة الأخيرة انعكست النسبة تماماً حيث 20% تعمل في الإنتاج البضاعي كي تقيم أود 80% تعمل في الخدمات التي هي إنتاج فردي لرأسمالي ولا تنتج ثروة وما يقيم الأود. المجتمعات الرأسمالية سابقاً هي اليوم مجتمعات مريضة ومشوهة هيكلية تتناول حقناً من الديون كي تبقى على حالها، لكن ذلك لن يستمر طويلاً بالطبع فسرعان ما تصل الأمور إلى نهاياتها المحتومة.

العلوم الماركسية تعلمنا أن الثورة هي فعل ذاتي آلي يحتمه تنامي قوى الإنتاج لدرجة لا تعود عندها تتحملها علاقات الإنتاج. إذًا فقط تقوم قوى الإنتاج بثورة تحطم علاقات الانتاج القائمة لتحل محلها علاقات إنتاج جديدة تسمح لها باستئناف نموها من جديد. في حياة ماركس وإنجلز كانت قوى الإنتاج تتنامى بسرعة في غرب أوروبا الذي كان إذًا مركز النظام

العالمي الرأسمالي. ولذلك توقع ماركس وإنجلز أن تقوم الثورة الاشتراكية في غرب أوروبا وخاصة في ألمانيا أو إنجلترا ومنها تتمدد لتسود العالم كله. فهل الحال هو اليوم كما كان قبل قرن أو قرن ونصف القرن؟ لا يمكن أن يكون الأمر كذلك. لقد قامت خلال هذه الفترة الطويلة حروب عالمية كبرى غيرت وجه العالم وعملت على انهيار كل الامبراطوريات الاستعمارية القديمة وقامت ثورات عالمية كبرى مثل ثورة أكتوبر الاشتراكية 1917 التي أمسكت بزمام العالم خلال قرن طويل وما زالت آثارها باقية في الأرض. كما قامت ثورة التحرر الوطني 1946 - 1972 التي قطعت نهائياً كل الروابط التي تربط البلدان المحيطة بالمراكز الرأسمالية. فكان انهيار آخر الامبراطوريات الرأسمالية، الولايات المتحدة، أمراً طبيعياً بعد أن استنفدت كامل قواها في مقاومة الشيوعية وفي الحرب الفيتنامية في نهاية الأمر.

فما هي علاقات الإنتاج القائمة اليوم والتي تحكم الثورة وطبيعتها كما ترسم المادية الديالكتيكية، وتدل على كيفية التعامل مع الممر المحكم الإنداد إلى المستقبل؟ هل التناقض رأسماليون/بروليتاريا الذي اعتمده ماركس لقيام الثورة الاشتراكية ما زال هو التناقض الرئيس الذي يلعب اليوم على المسرح الدولي؟ في خمسينيات القرن الماضي كانت البروليتاريا بقيادة البلشفي الأعظم يوسف ستالين قد بنت أقوى دولة عرفها التاريخ الأمر الذي مكّن الشعوب في البلدان المستعمرة أن تنهض في ثورة تحرر وطني عالمية لتنتجز استقلالها قبل العام 1972 فلا تعود مكباً لفائض الانتاج في مراكز الرأسمالية. لا يخالجي أدنى شك في أنه لو لم ينجح الانقلاب الرجعي الذي قامت به حثالات البورجوازية الوضيعة بقيادة نيكيتا خروشنشوف في قيادة الحزب بدءاً بتسميم ستالين في مارس 1953 ثم بعد ستة أشهر إلغاء برنامج المؤتمر العام للحزب لكانت البشرية تعبر اليوم عتبة الشيوعية .

الاقتصاد العالمي فيما قبل النصف الثاني من القرن العشرين كان وحدة واحدة تقوم على تناقض متزامن يشكل المعسكر الاشتراكي بقيادة الاتحاد السوفياتي أحد النقيضين والمعسكر الرأسمالي بقيادة الولايات المتحدة النقيض الآخر. وكان ستالين يرى أن التناقض بين المعسكرين يمكن أن ينتهي بانتصار الاشتراكية دون حروب ونزاعات مسلحة .. " إذا ما أخذت الشعوب قضية السلام بأيديها وازدادت عنه حتى النهاية ". أما الولايات المتحدة فقد سلكت طريق التآمر بتدبير ثورات مضادة تهدم الأبنية الاشتراكية القائمة لأجل العودة إلى النظام الرأسمالي كما حاولت ذلك في المجر . السياسات المعتمدة من قبل النقيضين لم تصل إلى نهاياتها الرسومة فكان أن انتهت إلى إغلاق الممر إلى المستقبل بإحكام وهو ما يواجهه عالم اليوم. فسُد النقيضان وتفسخا في مكانيهما فانعدمت الحياة في وحدة التناقض وأخذت البشرية تواجه ممرراً إلى المستقبل محكم الإغلاق، لا بل أخذت تحيا في عالم يتحلل على الدوام ولا يمكن إنفاذه، تتواهى علاقات الإنتاج فيه حتى لا تعود قادرة على حفظ تماسك وحدته فينتهي إلى الحطام.

ما يثير الاستهجان حقاً هنا هو أن شيوعي الهوى المتعجلون إلى الاشتراكية يوافقون على أن المعسكر الاشتراكي قد انهار تماماً لكنهم لا يوافقون على أن المعسكر الرأسمالي قد انهار أيضاً بل إن انهياره كان قد اكتمل قبل أن يكتمل انهيار المعسكر الاشتراكي. هل هم غفل لهذه الدرجة؟ نعم هم كذلك. عليهم أن يتبينوا النقد الماركسي للإقتصاد الرأسمالي قبل الإعتماد على أحكام فانتازية. من هم أكثر غفلاً من شيوعي الهوى هم أولئك الذين يقولون أن انهيار المعسكر الاشتراكي كان بسبب فساد النظرية الماركسية !! هؤلاء الأميون المغفلون يقولون مثل هذه الأقوال الغبية لأنهم لم يقرأوا ماركس على الاطلاق. فماركس لم يكتب شيئاً عن عبور الاشتراكية سوى أن هذا العبور لا يتم إلا بقيادة دولة دكتلورية البروليتاريا وهي الدولة التي ألغاها خروشنشوف رسمياً في مؤتمر الحزب الحادي والعشرون الاستثنائي في العام 1959 الأمر الذي يؤكد صحة نظرية ماركس في هذا المنحى على الأقل. باقي ما تبقى لا علاقة لماركس به. ولا يخجل بعض الأعداء في أن يعبروا عن رغباتهم الدفينة على الملأ فيزعمون أن المعسكر الرأسمالي بقيادة الولايات المتحدة قد ألحق هزيمة ساحقة بالمعسكر الاشتراكي وبالاتحاد السوفياتي. هؤلاء الأعداء يقرؤون في تاريخ العرب والمسلمين حيث كتبه المؤرخون كما رغب العرب والمسلمون أن يكون وليس كما كان فعلاً. واقع التاريخ هو العكس تماماً عما يدعي هؤلاء الأعداء. المعسكر الاشتراكي بقيادة الاتحاد السوفياتي هو الذي حطم المعسكر الرأسمالي وليس العكس. حركة التحرر الوطني التي استطلت بالمظلة السوفياتية هي التي حررت الدول المحيطة لمراكز الرأسمالية، والرأسمالية كما هو معروف لا تحيا بدون محيطات ولذلك تحللت وانهارت في سبعينيات القرن الماضي قبل عقدين من انهيار الإتحاد السوفياتي وتم نعي النظام الرأسمالي في إعلان رامبوييه نوفمبر 1975.

في أكتوبر 1917 انتفض الشيوعيون البلاشفة لتصحيح مسار الثورة البورجوازية التي عزلت القيصر في فبراير 1917 وتنفيذ برنامجها الذي قامت على أساسه لكن حكومتها تنكّرت له. في مارس 1918 وبحجة اعتراضها على معاهدة الصلح الجائرة مع الألمان، أعلنت البورجوازية الحرب على البلاشفة. بعد عام كامل من الحرب الأهلية استطاع البلاشفة أن يسحقوا كل الخلايا الحية للبورجوازية فكان بذلك أن سُدّت الطريق نهائياً للتطور الرأسمالي في روسيا مما دفع بلينين أن يعلن في مارس 1919 قيام الثورة الاشتراكية العالمية. أمل لينين أن يقدر الثورة الاشتراكية في روسيا فتلتهب في أوروبا وخاصة في ألمانيا مثلما كان قد توقع ماركس في العام 1882. وفعلاً اشتعلت الثورة الاشتراكية في ألمانيا وفي المجر وفي

جمهوريات البلطيق غير أن القوى الرجعية والفاشية، وقد امتلكت فائضاً من القوة، تمكنت من إخماد تلك الثورات خاصة وأن قادة السبارتاكين، روزا لكسمبورغ وكارل ليبكنخت، كان ما زال لديهم بعض أوهام الديمقراطية البورجوازية. في العام 1921 وقد فشلت الثورة الاشتراكية في ألمانيا مرة أخرى، جرّاء خيانات الاشتراكيين الكاوتسكيين، وعى لينين أن المهام التي أقيمت على كاهل البلاشفة كانت أثقل مما يستطيعون حملها. لذلك اقترح الخطة الاقتصادية الجديد (NEP) التي سمحت بالانتاج البورجوازي الصغير والتي وصفها لينين نفسه بالخطوة إلى الخلف للاشتراكية. في رسائله الأخيرة قبل رحيله أبدى لينين قلقاً عميقاً على مصائر الثورة الاشتراكية وحذّر من العبث في التحالف البلشفي بين العمال والفلاحين باعتباره الضمانة الأولى لتقدم الثورة وهو التحالف الذي عارضه تروتسكي على الدوام. ورث ستالين عن لينين القلق على مصائر الثورة بل زاد فيه وهو ما دفعه إلى تطهير الحزب من العناصر المشكوك بولائها للثورة توطئة لمواجهة العدوان النازي المتوقع في الثلاثينيات. في العام 1950 أجرى الحزب مناقشة موسعة بين قياداته حول تقدم العبور الاشتراكي للمجتمع وكان أن عبر ستالين عن قلق عميق على مصائر الثورة بفعل أفكار متطرفة لدى بعض القيادات الحزبية من مثل إلغاء كل أثر لقانون القيمة الرأسمالية في الاقتصاد السوفياتي وإلغاء طبقة الفلاحين دفعة واحدة بمرسوم رسمي. في المؤتمر العام التاسع عشر في نوفمبر 1952 وهو أول مؤتمر يعقده الحزب منذ العام 1938 شنّ ستالين هجوماً كاسحاً على قيادة الحزب في المكتب السياسي وطعن في أهلية أعضائها كأمناء على تقدم الثورة. إعادة انتخاب نفس الأعضاء لنفس المناصب من قبل الهيئة العامة للحزب بعد كل ذلك الهجوم الكاسح جاء عملاً صادماً لستالين دون شك مما دفعه إلى الإقتراح بتوسيع المكتب السياسي ليتشكل من 24 عضواً بدل 12 ، وقبل الإقتراح وتم انتخاب اثني عشر عضواً إضافياً، وإلى مطالبة المؤتمر بقوة بقبول استقالته من منصب الأمين العام للحزب ورئاسة مجلس الوزراء التي رفضها المؤتمر بالاجماع. في العام 1952 كان الاتحاد السوفياتي قد ابهر العالم بنجاحه في إعادة إعمار كل ما هدمته الحرب وحل مختلف القضايا الاجتماعية التي أعقبت فقدان الشعوب السوفياتية لـ 27 مليون إنسان قضوا جرّاء العدوان النازي. وفي ذات المؤتمر أعلن ستالين وسط تصفيق عاصف من آلاف المندوبين امتلاك الاتحاد السوفياتي للقنبلة الذرية وهي القنبلة التي استخدمتها الولايات المتحدة لترويع القيادة السوفياتية. كان الاتحاد السوفياتي في مطالع الخمسينيات حصن السلم والاشتراكية وأقوى دولة في العالم. كانت شعوب أوروبا الغربية وشعوب العالم قاطبة ترى في النظام السوفياتي مستقبل البشرية الواعد.

(5)

قلنا أخيراً أن الاتحاد السوفياتي كان في مطالع الخمسينيات، قبل ستين عاماً، حصن السلم والاشتراكية وأقوى دولة في العالم. كانت شعوب أوروبا الغربية وشعوب العالم قاطبة ترى في النظام السوفياتي مستقبل البشرية الواعد. بل إن ونستون تشيرتشل عدو الشيوعية رقم واحد في القرن العشرين صرح حال انتهاء معركة كورسك في 31 أغسطس آب 1943، حيث أنزل الجيش الأحمر ضربة قاصمة بالعمود الفقري للعسكرية الألمانية، صرح قائلاً .. " ليس من دولة أقامها الإنسان عبر التاريخ تحملت كل الخسائر الفظيعة التي أوقعها هتلر بروسيا ومع ذلك نهضت لتكبل الضربة القاضية لماكينه العسكرية الألمانية وهو ما يتجاوز قدرات أية قوى أخرى في العالم ". عندما احتل الجيش الأحمر برلين في مايو أيار 1945 كان الاتحاد السوفياتي يجند 6.5 مليون جندياً بعد أن فقد 9 ملايين. وخلال الخمس سنوات التالية أعاد الاتحاد السوفياتي إعمار كل ما هدمته الحرب بصورة أدهشت غورباتشوف كما عبر في مقدمة كتابه "البريسترويكا". ما من شك في أن الجهود التي بذلتها الشعوب السوفياتية خلال الحرب وإعادة الإعمار لا تستطيع الدول الكبرى، فرنسا وإنجلترا والولايات المتحدة، مجتمعة أن تقوم بمثلها والفضل كل الفضل يعود بالطبع للنظام الاشتراكي والقيادة اللينينية الحكيمة، قيادة ستالين. نعود لنؤكد أن الاتحاد السوفياتي في الخمسينيات كان أقوى دولة في الأرض وكان حقاً حصن السلم والاشتراكية.

ما الذي حدث إذاً لتنتهار هذه الدولة الأقوى في الأرض ولينهار هذا الحصن الإشتراكي مدمكاً بعد مدمك حتى لا يبقى منه أثر في العام 1991 ؟ قبل الإجابة على مثل هذا السؤال الفصيل ثمة سؤال آخر على جانب كبير من الأهمية إذ تلقي الإجابة عليه إضاءة تسعفنا في الإجابة على السؤال الأول، وهو لماذا تنعدم تقريباً كل الأبحاث الجادة حول أسباب انهيار الاتحاد السوفياتي مع أن المسألة تتعلق بمصائر البشرية وقد انتهت إلى ما هي عليه اليوم من ضياع وجوع ؟ حتى الأحزاب الشيوعية التي استمدت مشروعيتها من مشروع لينين وقيام الإتحاد السوفياتي لم تكلف نفسها بالبحث عن أسباب الانهيار وهو ما يفقدها كل مشروعية. نسأل عن هذا ونحن نعلم أن المؤهلين للبحث في هذا المساق لم يعدوا المناهج والأدوات اللازمة للبحث. وما يثير العجب والغضب في أن هو أن شيوعي الهوى ما زالوا يجهلون الأسباب التي أدت إلى انهيار المشروع اللينيني ومع ذلك لا يترددون في أن يشجبوا قولنا بالمرحوم الإغلاق إلى المستقبل !! كيف لهم أن يدعوا بأن مشروعهم الاشتراكي الذي يعدون بإقامته سيكون أكثر أصالة من المشروع اللينيني وأن الدولة الاشتراكية التي سيشيدونها ستكون أقوى من الاتحاد السوفياتي فلا تنتهار مرة أخرى؟! من سيصدق مثل هؤلاء الأولاد الطائشين الأغرار المتطفلين على العلوم السياسية!؟

إزاء مثل هذه الحقائق لا يسعنا البحث عن أية أسباب أخرى لإحجام الجميع عن البحث في أسباب انهيار أقوى دولة وأقوى نظام في تاريخ العالم غير تلك التي تتعلق بالعداء للاشتراكية ولتحرير الانسان من كل أثر للاستغلال والامتهان. وليس ذلك بمستغرب فالعالم اليوم يحط بمحطة تطفو فيها الأغلبية من البورجوازية الوضيعة على دماء الأقلية من البروليتاريا. ميكائزمات العداء الطبقي هي أبلغ أثراً في حالة عداء البورجوازية الوضيعة للبروليتاريا منها في حالة عداء الرأسماليين. الرأسماليون هم الذين يصنعون الاشتراكية فيما هم يتاجرون بقوى العمل، بينما البورجوازية الوضيعة تطمسها عملياً بفعل أسلوبها الفردي الخاص بالإنتاج. إنها تجهد في ألا تُذكر الاشتراكية على الألسنة فكيف بها تبحث عن أسباب انهيارها؟! كيف تبحث عن أسباب انهيارها وهي، هي نفسها، سبب الانهيار؟! البورجوازية الوضيعة اليوم تستنزف البروليتاريا أضعاف ما كان الرأسماليون يستنزفون. هؤلاء القوم الطارئة على التاريخ يعمدون إلى طمس أسباب انهيار المعسكر الاشتراكي وليس الإحجام عن البحث فقط كيلا يكتشف العالم جريمتهم. طبعاً هم لا يجدون تبريراً لمثل هذا الموقف المستهجن غير حجتين مضحكتين، تزعم أولاً أن الخلل في الماركسية، وكان ماركس قال أكثر من أن الإنسان دؤوب بحكم الطبيعة على تطوير أدوات الانتاج من أجل تعظيم الإنتاج، وهو ما يفرض على المجتمعات أن تتكيف بين فترة وأخرى وفق شروط الانتاج الجديدة. لا يمكن الإدعاء بخلل في هذه الحقيقة التاريخية. وحجتهم الثانية وهي أن الولايات المتحدة طوقت الاتحاد السوفياتي وحاصرته اقتصادياً حتى لفظ أنفاسه؛ وهذه حجة أشد غباءً من سابقتها ففي إعلان رامبويه نوفمبر 1975 الذي بحث في أمر أنقاذ النظام الرأسمالي من الموت أعلن رؤساء الدول الرأسمالية الخمس الكبرى أنهم عازمون على الإفتتاح على المعسكر الاشتراكي تجارياً واقتصادياً ما وسع الإفتتاح. وحكاية سباق التسلح التي تلوكها كثيراً البورجوازية الوضيعة فالولايات المتحدة وليس الاتحاد السوفياتي هي من كان يشكو من سباق التسلح وكانت التقارير الدورية لوزارة الخارجية الأميركية تقول أن ميزانية وزارة الدفاع السوفياتية ليست في الحقيقة هي المبالغ المعلنه في الموازنة العامة فالإقتصاد السوفياتي معسكر بكليته، وكان هذا صحيحاً تماماً. الاتحاد السوفياتي هو من كان يفرض سباق التسلح على الولايات المتحدة وليس العكس كما يشاع عامةً. الإقتصاد الحربي حلّ محل الإقتصاد الاشتراكي منذ أن قرر المكتب السياسي للحزب الشيوعي إلغاء الخطة الاقتصادية للحزب في سبتمبر 1953 ليستبدلها بخطة التصنيع الثقيل الذي لم يعن غير تصنيع الأسلحة.

إذاً ما الذي تسبب باتهيار أقوى دولة في الأرض بل وفي التاريخ؟

دون أن نصل إلى حقيقة هذه الأسباب ونبني على ضوئها مشروعنا التقدمي الجديد عبثاً نقترح أي مشروع نبيعه على الشعب كما يبيع الأفيون، وتعرّف قبلنذ على طبيعة الممر محكم الإغلاق إلى المستقبل بمواجهة البشرية، بغياب هذه الأسباب لا يجوز لنا بداية أن نتحدث حديث السياسة قبل أن نضع أيدينا على أسباب انحلال التناقض الاشتراكي/الرأسمالي وانهيار المعسكرين الرأسمالي في السبعينيات والاشتراكي في الثمانينيات.

كان ماركس قد كتب في مقدمة الطبعة الألمانية للمانيفستو عام 1882 يقول .. يمكن أن تقدح شرارة الثورة الاشتراكية في روسيا لتشتعل في أوروبا. قدحت الشرارة في روسيا في مارس آذار 1919 بعد أن سحق العمال والفلاحون قوى البورجوازية والرجعية في الحرب الأهلية. لكن أحقاد المردد كاوتسكي على لينين والبلاشفة جعلت من الحزب الاشتراكي الديمقراطي في ألمانيا مؤثلاً للخيانة، خيانة الثورة الاشتراكية. فقد ساهم هذا الحزب في إجهاض الثورة الاشتراكية في بافاريا 1918 وفي الرور 1923 من ألمانيا. كما أجهضت الثورة في المجر وفي جمهوريات البلطيق في العام 1919 أيضاً.

في العام 1922 بعد أن أُخمد لهيب الثورة في أوروبا تحقق لينين من ثقل الحمل الذي ألقى على كاهل البلاشفة. فكان أن اقترح "الخطة الاقتصادية الجديدة - النيب" التي تسمح بالإنتاج البورجوازي الصغير، كأن يبيع الفلاحون محاصيلهم في السوق الحرة مستهدفاً حماية الثورة من أعدائها في الداخل. كما أوصى بقوة وبحرص بالغ على توطيد التحالف مع الفلاحين (البولشفية) محذراً من خسران الثورة في حالة انقسام هذا التحالف. رحل لينين في يناير 1924 والقلق البالغ يساوره على مصير الثورة. كان القلق مشروعاً فلو لم ينجح الحزب في بناء اقتصاد اشتراكي لن تتطور البروليتاريا، وهو ما يسمح للنظام الرأسمالي بالعودة إلى روسيا آنذاك. لدى افتتاح المؤتمر الأول للأمم المتحدة في مارس 1919 أكد لينين أن مصائر الثورة الاشتراكية في العالم تنقرر في روسيا، تقررها البروليتاريا الروسية. طبعاً لم يرد في خاطر لينين آنذاك أن البروليتاريا يمكن أن يقودها حزب غير لينيني. وهنا لا بد من العودة إلى شهادة تشيرتشل الذي خطب في مجلس اللوردات بمناسبة عيد ميلاد ستالين الثماني في 23 ديسمبر 1959، وكان قد اعتاد في هذه المناسبة أن يرسل برقية تهنئة لرفيقه في الحرب يوسف ستالين، خطب يقول .. " كان حظ روسيا الأكبر أن يستلم قيادتها يوسف ستالين في أصعب الأوقات وحين كانت لا تملك شيئاً وتركها وهي دولة نووية ". بل ولنا أن نضيف أيضاً أن ذلك لم يكن من حظ روسيا فقط بل ومن حظ شعوب المستعمرات والبلدان التابعة حيث شكل الاتحاد السوفياتي إثر انتصاره الحاسم في الحرب 1945 القاعدة الصلبة لحركة التحرر الوطني العالمية التي أنجزت التحرر والاستقلال لجميع الدول المحيطة خلال الفترة 1946 - 1972.

في البحث عن تراجع الثورة الاشتراكية خلال النصف الثاني من القرن العشرين حتى الإنطفاء التام في العام 1991 ليس بوسعنا تجاهل المبدأ الماركسي الذي يقول أن حركة التاريخ تتقرر بفعل الصراع الطبقي. كان الفيلسوف الألماني الكبير جورج هيغل قد رأى أن التاريخ يكتبه النزوع الفردي نحو تحقيق الذات. لكن ماركس أخذ هذه الفكرة وطورها فرأى أن الإنسان كحيوان منتج لا يستطيع أن يحقق ذاته منزوعاً من علاقات الانتاج وعليه يحقق الإنسان ذاته من خلال تحقيق وسيلته الخاصة بالإنتاج التي هي وسيلة طبقية دائماً وأبداً. وبذلك يتم تحقيق الذات الطبقة من خلال الصراع الطبقي وهو ما يكتب التاريخ. ظهر مؤخراً فرانسس فوكوياما وقد جندته البورجوازية لينقض ماركس فذهب عكس مذهب ماركس وقزّم مبدأ هيغل فقال أن ما يكتب التاريخ هو نزوع الذات إلى التسلط. فوكوياما لم يجد غير مثل هذه الفكرة السقيمة ليبرر فكرة أخرى أكثر سقماً تقول أن التاريخ انتهى في مجتمع طبقي ولا يتواجد الإنسان في الحياة إلا في هياكل طبقية. وزاد مجدداً آخر هو صموئيل هنتنغتون على فوكوياما فقال أن التاريخ يكتبه صراع الحضارات منكرراً كل تناقض في المجتمعات الطبقة. أفكار هذين المجدنين السقيمة لا تستحق الإلتفات طالما أنها تنطلق من تجريد الإنسان من الإنتاج الذي هو وسيلته الوحيدة لفعل الأنسنة وصناعة التاريخ؛ فلو لا الإنتاج لما كان للإنسان تاريخ.

بناءً على مبدأ ماركس القائل بأن المحرك الوحيد لعربة التاريخ هو الصراع الطبقي فالعربة السوفياتية لم تخرج من دائرة الاشتراكية إلا بفعل الصراع الطبقي. تتوقف طويلاً أمام النقاش الطويل والشائك الذي دار في ندوة عقدها قيادة الحزب الشيوعي في العام 1950 تبحث في " القضايا الاقتصادية للاشتراكية في الاتحاد السوفياتي " حضرها بالإضافة إلى قادة الحزب كبار الأخصائيين في مختلف حقول الاقتصاد وخاصة في الاقتصاد الزراعي. وانعكست مختلف النقاشات في مؤلف ستالين الذي حمل ذات العنوان وصدر الجزء الأول منه في العام 1952 ولم يمهل العمر ستالين لإصدار الجزء الثاني وقد طمسه خلفاؤه الخونة. في تلك المناقشات توقف ستالين طويلاً أمام التناقضات الطبقة في المجتمع السوفياتي. ما يلفت النظر في تلك المناقشات هو أن ستالين لعب دور التهوين من أهمية تلك التناقضات حيث ارتفعت أصوات عديدة ومنها صوت فياتشسلاف مولوتوف وهو الرجل الثاني في الحزب تطالب بفض تلك التناقضات بالقوة الغاشمة. حذر ستالين المننديين من استخدام القوة الغاشمة في فض التناقضات إذ أن ذلك سيشكل خطراً كبيراً على الثورة وخاصة التناقض مع الفلاحين الذين شكلوا شريحة هامة من البورجوازية الوضيعة وقال أن إلغاء طبقة الفلاحين سيستغرق بضع سنوات تتم خلالها تنمية المصنوعات الخفيفة لخير البروليتاريا السوفياتية تحديداً فيتخلى الفلاحون عن إنتاجهم البورجوازي الصغير طوعياً. كما تكلم ستالين عن التناض مع العاملين في إدارة الدولة والمهنيين وعن التناقض بين العمل الذهني والعمل اليدوي. عكف ستالين على كتابة ذلك الكتاب الهام جداً ليحذر رفاقه في القيادة من مقاربة " محو الطبقات " في عبور الاشتراكية باستخفاف كيلا يعرضوا أمن الدولة لأخطار حقيقية. في المؤتمر العام التاسع عشر للحزب في أكتوبر/نوفمبر 1952 قرر المؤتمر خطته الخمسية 52 - 56 التي قضت بمضاعفة انتاج الصناعات الخفيفة الاستهلاكية للضعفين أو ثلاثة أضعاف مستهدفة رفع مستوى حياة البروليتاريا تحديداً وذلك توطئة للإنحلال الطوعي لطبقة الفلاحين. وللدلالة على ذلك قرر المؤتمر إلغاء صفة البولشفي من اسم الحزب الشيوعي التي اكتسبها الحزب جرّاء تحالفه مع الفلاحين منذ العام 1902.

في ذلك المؤتمر تحوّل ستالين من جملة رفاقه في القيادة ودمغهم بالقصور في العمل الشيوعي وأكد لمندوبي الحزب من عموم الإتحاد السوفياتي أن أولئك الرجال في القيادة لن يوصلوهم إلى الشيوعية ولذلك يتوجب استبدالهم. المندوبون لم يفهموا مقاصد ستالين على حقيقتها فأعادوا انتخاب نفس الأشخاص جميعهم فكان أن طالب ستالين بتوسيع المكتب السياسي للحزب إلقاءً لقصور المكتب السياسي الحالي ليكون عدد أعضائه 24 بدل 12 ، وفعلاً أنتخب 12 عضواً إضافياً.

في العام 1952 لم يكن أحد في العالم يعتريه الخوف على مستقبل الاشتراكية في الإتحاد السوفياتي سوى ستالين. يقرأ المرء مناقشات الندوة الحزبية في العام 1950 ومناقشات ستالين في المؤتمر العام التاسع عشر فيدرك مدى ذلك الخوف. خوفه وصل حد اتهام رفاقه في المكتب السياسي بالقصور في العمل الشيوعي لكنه لم يصل حد اتهامهم بالخيانة التي اقترفوها غداة أن لفظ ستالين أنفاسه الأخيرة حيث اجتمعوا في صباح 6 مارس قبل أن يوارى جثمان ستالين في القبر وقرروا قبل كل القرارات الأخرى شطب الإثني عشر عضواً الذين قرر مؤتمر الحزب إضافتهم في المكتب السياسي؛ خليك عن تسميم ستالين الذي قام به ثلاثة منهم كانوا قد تناولوا العشاء معه عشية إصابته بالنزيف في الدماغ كما يرجح رفيق عمره مولوتوف في مذكراته وهم بيريا ومالينكوف وخوروشتشوف، وكما تحققت من ذلك لجنة تشكلت من أخصائيين أميركيين وروس ووجدت أن ستالين مات مسموماً بسم القوارض واسمه (Warfarin) يتسبب بنزيف في الدماغ ويحول دون تجلط الدم.

ما يجدر ذكره في سياق خيانة الثلاثي بيريا ومالكوف وخورشتشوف لمبادئ الحزب ولأبسط الأعراف الإنسانية والأخلاقية هو أنهم قاموا باغتيال ستالين دون أن يدركوا تداعيات تلك الجريمة التي لم توازها جريمة أخرى في التاريخ فكان من تداعياتها انحراف مسار تطور العالم حتى الوصول إلى الأزمة الحالية التي تهدد البشرية بأوخم العواقب. لم يدرك أولئك الخونة خطورة ما قاموا به وظنوا أنهم إنما يدافعون عن مراكزهم في الحزب وفي الدولة وقد أوصى ستالين بتبديلهم. ولعل الآخرين في المكتب السياسي لم يحزنوا على رحيل ستالين باستثناء رفيق عمره مولوتوف على ما بدا إذ كانوا مهتمين بالتبديل أيضاً. الخونة الثلاث وبقية أعضاء القيادة الذين اجتمعوا قبل أن يذفن ستالين وقرروا شطب الأعضاء الجدد الإثني عشر في المكتب السياسي كانوا يعتقدون بكل ثقة أن قضية الشيوعية لن تُضار برحيل ستالين. وما لم يأخذه في الحسبان أولئك الخونة الذين اغتالوا ستالين هو أن ستالين رقم 2 وستالين رقم 3 لم يكن أحداً من بينهم.

كان ستالين يكره العسكرية وبراهها معيقاً لبناء الاشتراكية. ففي الثلاثينيات وقف سداً منيعاً في وجه العسكرية مما دفع بقيادة الجيش إلى تخطيط انقلاب عسكري ضد الدولة، دولة العمال، فكان أن قبض عليهم وحوكموا وأعدموا في العام 1938. ظل ستالين متحفظاً على العسكرية حتى حين بدا في مؤتمر ميونخ 1938 أن الدول الاستعمارية، بريطانيا وفرنسا، والدول الفاشية، ألمانيا وإيطاليا، مشتركة في التخطيط لتحطيم الاتحاد السوفياتي من خلال حرب عظمى تقودها الهتلرية عليه. ولذلك ليس خطأ أن تنسب الهزائم التي لحقت بالجيش السوفياتية في الأشهر الخمسة الأولى للحرب لتحفظات ستالين على العسكرية وكان أول من اعترف بذلك ستالين نفسه فعزل نفسه من قيادة الحزب والدولة في اليوم التالي للعدوان النازي ولم يرجع عن قراره بالعزل إلا بعد إلحاح شديد من رفاقه في القيادة. بل لعل الحجة تقوم هنا على أن تحفظات ستالين على العسكرية هي التي مهدت الطريق لانتهيار الاتحاد السوفياتي. فلو رد الاتحاد السوفياتي العدوان الهتلري عند الحدود لما اضطر أن يجند 15 مليون جندياً فيكون من بينهم آلاف المارشالات والجنرالات الذين قادوا طبقة البورجوازية الوضيعة في تفكيك الاشتراكية وما زالوا يقبضون على السلطة في روسيا الاتحادية، خليك عن الخسائر المادية الجسيمة بمختلف المقاييس. العدوان النازي على الاتحاد السوفياتي كان مدداً لطبقة البورجوازية الوضيعة السوفياتية إذ عززت مواقعها في صراعها الطبقي ضد البروليتاريا التي تحملت خسائر جسيمة جرّاء الحرب.

بعد أن كانت العسكرية شيئاً معيقاً للتقدم الاشتراكي أصبحت مع بدء الحرب شيئاً لازماً للحفاظ على الاشتراكية نفسها. ترتب على الاتحاد السوفياتي أن يحول جميع صناعاته إلى صناعات حربية بحيث استطاع في العام 43 أن يلقي في أرض المعركة أسلحة تفوق الأسلحة الألمانية نوعاً وكماً. وترتب على الاتحاد السوفياتي أن يجند أكثر من 15 مليوناً من رجاله خاصة وأن بريطانيا والولايات المتحدة لم تحاربا طيلة الحرب سوى إيطاليا وتركنا الاتحاد السوفياتي عن سوء قصد يُستنزف في محاربة ألمانيا.

صحيح أن الاتحاد السوفياتي كسب الحرب لكنه صحيح أيضاً أن نتيجة الحرب النهائية كان تحطيم الدولة الاشتراكية. لم يكن ذلك بسبب الخسائر المادية التي تجاوزت كل الحسابات وأعاقت بالتالي التطور الاشتراكي، وليس بسبب الخسائر في الأرواح ووصلت 27 مليوناً ومثلت قوى عمل هائلة، ليس بسبب هذا كله بل بسبب عسكرة المجتمع. قتل في الحرب 9 ملايين جدياً منهم أقل من 9 جنرالات. وانتهت الحرب وهناك في الجيوش السوفياتية عشرات المارشالات وآلاف الجنرالات مثقلة صدورهم بمختلف النياشين التي تعبر عن تقدير الشعب قبل الدولة لهم. مثل هؤلاء أقوى شريحة من شرائح الطبقة البورجوازية الوضيعة المعادية للبروليتاريا وللإشتراكية بحكم بنيتهم الطبقيّة مقدار عدائهم للنازية التي حاربوها وربما أكثر. لم يكف أن ستالين كان يعتمد طمسهم اجتماعياً ولا يعطيهم دوراً ذا شأن في تطوير المجتمع فالبربروسا الهتلرية أمدت الطبقة الوسطى السوفياتية بمدد ما كانت لتحلم به. بمقدار ما خسرت طبقة البروليتاريا في الحرب بمقدار ما ربحت طبقة البورجوازية الوضيعة وعلى رأسها جنرالات الجيش.

في العام 1953 قامت طبقة البورجوازية الوضيعة متمثلة بالعسكر وبالفلاحين بتحطيم الأساس الذي استند إليه المشروع اللينيني. البورجوازيون الوضعاء في المكتب السياسي عملوا على التخلص من ستالين لأن أحداً منهم لم يستطع أن يحتل المرتبة الثانية بعد ستالين ولا حتى الثالثة فتغييب ستالين كان يعني بالنسبة إليهم البروز كرجال سلطة ذوي حول وطول خاصة بعد أن طلب ستالين من الهيئة العامة للحزب تغييرهم وإحالتهم إلى التقاعد وهم الذين اعتادوا على ممارسة السلطة. غاب عن هؤلاء أن أحداً منهم لن يكون الرجل الثاني بعد ستالين فرجال الجيش من مارشالات وجنرالات يتقدمون عليهم وإذاك ستأخر منزلتهم عما كانت عليه بحياة ستالين فلم يرد إلى مخيلة لافرنتي بيريا وزير أمن الدولة أنه يسمم ستالين في شهر مارس ويلاقي الأعدام في ديسمبر بعد بضعة شهور فقط. العسكر الذين سرعان ما احتلوا مركز ستالين سما خورشتشوف ناطقاً باسمهم كأمين عام للحزب بعد أن رفض مالكوف القائم بأعمال الأمين العام أن يقوم بذات المهمة. الجريمة النكراء التي قامت بها عصابة خورشتشوف بطلب من العسكر وشكلت كارثة لا مثيل لها بحق البشرية جمعاء هو قرار المكتب السياسي واللجنة المركزية للحزب في سبتمبر 1953 إلغاء البرنامج السياسي والإقتصادي للهيئة العامة

للحزب في مؤتمرها العام التاسع عشر في نوفمبر 1952 وهو ما يتجاوز كل الصلاحيات المخولة إليهم. كان ذلك بمثابة خيانة فاضحة لتقاليد الحزب وأهدافه. عمد العسكر على إزاحة البروليتاريا من السلطة بأيدي "حزبها" كما يفترض

كان ستالين قد تحدث عن أهداف الخطة الخمسية التي أقرها المؤتمر العام التاسع عشر للحزب في مناقشات الندوة الاقتصادية التي عقدتها قيادة الحزب في العام 1950. كانت الخطة تستهدف إحداث تغييرات نوعية في هيكل المجتمع السوفياتي. مضاعفة إنتاج السلع الاستهلاكية بنسبة 200 - 300% كان سيعود على البروليتاريا تحديداً بتطور نوعي وكمي ملموس مما يعزز نفوذها في المجتمع بحيث يغدو الرجوع عن الاشتراكية أمراً مستحيلاً. وكان سيعود على الفلاحين بأثر سلبي قد يلامس حدود الانحلال كطبقة اجتماعية. تطور البروليتاريا الكمي والنوعي كان سيحكم قيادة الحزب بالإلتزام الصارم بالخط الاشتراكي وهو ما لا ترغب فيه تلك القيادة التي طعن بأهليتها ستالين. كما أن الخطة قصرت التنمية على الإنتاج المدني وهو ما يهشم العسكر خاصة وأن ستالين كان في العام خمسين قد أطلق نداءه الشهير لصيانة السلام في العالم فكانت الاستجابة لذلك النداء واسعة بوسع العالم فتشكل مجلس السلم العالمي برئاسة العالم الفرنسي فرديريك جوليو كوري الذي أصدر نداء ستوكهولم الشهير وقد جرى التوقيع عليه من قبل شعوب العالم قاطبة - ونشطنا في الأردن في العام 1951 بجمع عشرات ألوف التواقيع عليه. السياسة السلمية والإنتاج المدني الكثيف الموعد حاصراً مارشالات وجنرالات الجيش الأحمر حتى باتت أثقال الأوسمة على صدورهم بلا قيمة وبلا معنى.

الثلاثي الخائن اغتال ستالين ليحلوا محله في قيادة العمل الشيوعي، لكنهم فوجئوا بأنهم ليسوا هم رقم 2 بعد ستالين بل الجيش العرمرم من المارشالات والجنرالات الذين يحملون على صدورهم مفاخر الحرب الوطنية. وهكذا ترتب على الثلاثي الخائن أن ينحني وضاعة أمام العسكر ويصغي جيداً لأوامر العسكر. يأمرونه بأن يسب ستالين القائد الأعظم للبروليتاريا فيسبه عام 56. ويأمرونه بإلغاء دولة دكتاتورية البروليتاريا فيعلن إغائها عام 59. وعندما ضاق المكتب السياسي ذرعاً بالناطق باسم العسكر، خروشتشوف، وسحبوا الثقة منه في يونيو 1957 وترتب عليه أن يخلي كل مراكزه في القيادة قام العسكر بانقلاب وطردوا من الكتب السياسي جميع الذين صوتوا ضد خروشتشوف. عبثاً حاول خروشتشوف بكل السبل خفض نفقات التسلح مستهدفاً الحد من نفوذ العسكر على الحزب وعلى الدولة، وتوفير بعض الأموال لتطويع الانتاج المدني الخاص بالبروليتاريا حتى كان العام 1964 وحاول التمرد على العسكر فما كان منهم إلا أن خلعه بانقلاب عسكري خلال ساعتين وهي المرة الوحيدة التي يتم فيها خلع الأمين العام للحزب الشيوعي الذي هو من المفترض أن يكون أقوى منظمة في المجتمع السوفياتي. في مذكرات خروشتشوف اعتراف صريح بأنه هو نفسه وسائر قادة الحزب الآخرين لم يجروء أحد منهم على مخالفة أوامر العسكر. إذاً منذ رحيل ستالين في مارس 1953 وحتى اليوم انفرد العسكر بحكم الاتحاد السوفياتي وروسيا الاتحادية فيما بعد.

للعسكرية الروسية هدف واحد وحيد وهو تهميش البروليتاريا الروسية حتى لا تتمكن يوماً ما من أن تعود إلى استلام السلطة. تهميش البروليتاريا يتحقق فقط من خلال تركيز الاقتصاد على الانتاج الحربي وتقليص الأرصدة المخصصة للإنتاج المدني. إنهم يسيرون عكس المبدأ الستاليني تماماً الذي يقول أن كل كوبيك ينفق في العسكرة يعيق تقدم الاشتراكية. ومن هنا يعمد العسكر إلى إنفاق كل الكوبيكات على العسكرة من أجل تراجع الاشتراكية وسد الطريق على البروليتاريا للحؤول دون تطورها. ويخطئ من يقول أن روسيا الاتحادية هي اليوم على طريق التطور الرأسمالي فالعسكر يعلمون جيداً أن النظام الرأسمالي من شأنه أن يعمل على تعضيد طبقة البروليتاريا ولذلك لن يسمحوا به. لستين عاماً والعسكر الروس يدفعون بالبروليتاريا إلى الخلف. مثل ذلك الحقد الذي يضمه العسكر الروس على البروليتاريا لم يمثله سوى الحقد النازي. ففي الثمانينيات كان 240 قمراً صناعياً سوفياتياً تدور حول الكرة الأرضية باستمرار في الوقت الذي كان 240 طابورا من الشغيلة على الأراضي السوفياتية يتزاحمون ليأخذ كل منهم بعد ساعات بضع حبات من البطاطا أو شفرة حلاقة أو معجون أسنان. الضنك الذي واجهته البروليتاريا على يد العسكر باسم الحزب الشيوعي جعل العمال يكرهون كل ما اتصف بالشيوعية وهو ما أراده العسكر بحيث لدى سقوط حكومة الحزب الشيوعي في العا 1991 لم ينتصر لها حتى أعضاء الحزب أنفسهم وكانوا يعدون 17 مليوناً. وفي الانتخابات الحرة الأولى التي جرت في عهد يلتسن قام عمال المناجم بطرد مرشحي الحزب الشيوعي من منطقتهم. كراهية العمال للحزب الشيوعي التابع للعسكر بلغت أوجها ويصعب تلاشيها في فترة محدودة طالما تعمد الحزب تابعاً ذليلاً للعسكر. الحزب الشيوعي الذي كان قد وضع خطة خمسية في نوفمبر 1952 تستهدف تطويع البروليتاريا نوعاً وكمياً هو نفسه الذي وضع برنامجاً غير محدود لقهو العمال وسلبهم السلطة في السنة التالية في سبتمبر 1953.

العالم كل العالم وليس روسيا وحسب تحكمه البورجوازية الوضيعة التي تستغل العمال أبشع استغلال إلا أن الحالة في روسيا تختلف عنها في سائر دول العالم. في كل أطراف الأرض تقوم البورجوازية الوضيعة باستغلال العمال من خلال مبادلة خدماتها التي ليست من الثروة بالسلع من إنتاج العمال والتي هي من صميم الثروة. وتتوحش في الاستغلال بفرض أسعار كيفية لخدماتها. الحالة في روسيا غير هذا تماماً. فالعسكر لا ينتجون أية خدمات إذ يقتصر إنتاجهم على الأسلحة.

والأسلحة ليست من أسباب عيش الناس. لا العمال ولا البورجوازية الوضيعة بحاجة للأسلحة كي تعيش. فإذا كان العمال والبورجوازية الوضيعة يتبادلون السلع بالخدمات ولو بمبادلة غير عادلة فإن العسكر الروس يستولون على القسم الأعظم من السلع والخدمات مقابل لاشيء. إنتاجهم الهائل من الأسلحة يتقدم معظمه في أرضه وما يتم تصديره إلى الخارج لا يعود بشيء يذكر على الشعب الروسي حيث يمنح بعضه كتنوع لأغراض سياسية والبعض الآخر يبقى ديوناً غير مستردة. أضف إلى ذلك أن سوق السلاح سوق سياسية وللسوفييت من قبل وللروس من بعد حظ قليل فيها.

مثل هذه العلاقات للإنتاج الفضة وغير الطبيعية كانت ستنتهي سريعاً قبل عشر سنوات أو أكثر ليعقبها هيكله اجتماعية مختلفة، ربما هيكله اشتراكية، لولا الإرتفاع المفاجئ للنفط والغاز حتى وصل سعر البرميل في السوق الدولية إلى 140 دولاراً وأضحت روسيا تصدر حوالي 7.5 مليون برميل يومياً قيمتها يزيد عن مليار دولار يومياً بالإضافة إلى صادرات الغاز وتصل إلى ما يزيد على 500 مليار دولار سنوياً. وهكذا أخذت العسكرية الروسية تعتمد في إنتاج الأسلحة على الإيرادات من صادرات الطاقة. روسيا اليوم تصدر الطاقة مثل أي دولة متخلفة - كان تصدير الطاقة ممنوعاً في المرحلة السوفييتية المبكرة - وتصنع الأسلحة دون غيرها من الدول - قبل أسابيع اتخذت عصابة العسكر في روسيا قراراً بتجديد كامل ترسانة الأسلحة لدى روسيا !!

البورجوازية الوضيعة تحكم بلدان العالم حكم العصابات وذلك لأن نمط الإنتاج الخاص بها، إنتاج الخدمات، لا يمّون المجتمع بأدنى احتياجاته. يظل المجتمع معتمداً تحت حكمها على إنتاج العمال المادي المبعدين عن السلطة، وعليه يمكن القول أن دولة البورجوازية الوضيعة دولة مؤقتة لن تَعمر طويلاً. العسكرية الروسية إنما هي عصابة العصابات حيث عصابة العسكر تحرم طبقة البورجوازية الوضيعة غير العسكرية من أن تنال حصتها سواء من إنتاج العمال المادي أو من عائدات صادرات الطاقة. حيث ما يستولي عليه العسكر من هذين المصدرين، إنتاج العمال وعائدات الطاقة ينفقونه في إنتاج أسلحة لا أحد يحتاجها ولا تنفع في شيء. منذ رحيل ستالين عام 1953 لم يجد العسكر سبيلاً لمقاومة الاشتراكية أجدى من إنتاج الأسلحة. ينتجون الأسلحة ليس لمقاومة العدو خارج الوطن - ويمكن القول أنه لم يعد هناك أعداء حربيين للإتحاد السوفييتي بعد نهاية الحرب العالمية الثانية - بل لمقاومة العدو في الداخل وهو البروليتاريا.

دولة العسكر برئاسة الكي جي بي (KGB) التي حكمت الإتحاد السوفييتي منذ رحيل ستالين أغلقت بإحكام الممر إلى المستقبل في الإتحاد السوفييتي الذي مثّل قبلئذٍ القوة الجبارة التي كانت تقود العالم إلى المستقبل.

(7)

الفكرة الشائعة بين الكتاب والمحليلين البورجوازيين تقول أن أميركا انتصرت في الحرب الباردة على الإتحاد السوفييتي وأن الرأسمالية انتصرت على الاشتراكية. هؤلاء الكتاب والمحليلون البورجوازيون يحاكمون الظواهر الخارجية فقط، وهم أعجز من أن يتعمقوا فيما وراء الظواهر كيما يتعرفوا على حقيقة الأمور. لو فعلوا ذلك لعرفوا أن الإتحاد السوفييتي هو الذي هزم أميركا وأن الاشتراكية هي التي انتصرت على الرأسمالية. صحيح أن العبور الاشتراكي في الإتحاد السوفييتي كان في تراجع في سبعينيات القرن الماضي لكن الرأسمالية الأميركية وهي التي تكفلت بقيادة الرأسمالية العالمية فيما بعد الحرب العالمية الثانية لفضت أنفاسها الأخيرة في حربها على فيتنام مع بداية سبعينيات القرن الماضي حيث أعلنت، وكانت هيئة أركان النظام الرأسمالي العالمي، عجزها التام عن كفالة عملتها وهو لا يعني فقط فقدانها أول عناوين سيادة الدولة بل يعني ما هو أكثر من ذلك، يعني أن الولايات المتحدة لم تعد دولة رأسمالية، فالدولة الرأسمالية، خليك عن الإمبريالية، لا يمكن ولا يجوز أن تعجز عن كفالة عملتها - ومن لا يصدق ذلك عليه مراجعة معلوماته الأولية في علم الإقتصاد الرأسمالي الذي يتأسس على مبدأ خلق الثروة دون انقطاع. الرأسمالية كانت أفضل نظام إنتاج عرفته البشرية قبل الاشتراكية السوفييتية حيث كانت نظام اغتناء يحول قوى العمل المتاحة في المجتمع إلى قيمة تبادلية دون انقطاع.

علمنا الرفيق ستالين عن أسس اللينينية أن النظام الرأسمالي سيتفكك وينهار بفعل تناقضات كبرى ثلاث في تركيبته الطبيعية وهي ..

- (1) التناقض الرئيس بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج، أو بين العمال والرأسماليين.
- (2) التناقض بين المراكز الرأسمالية نفسها في تقسيم وإعادة تقسيم الأسواق من خلال الحرب.
- (3) التناقض بين المركز الرأسمالي والشعوب في محيطه وهو ما تمثل أخيراً بالثورة الوطنية.

قصّ علينا تاريخ القرن العشرين كيف أن النظام الرأسمالي انتهى نهائياً في العالم بفعل هذه التناقضات الثلاث مجتمعة قبل العام 1975 حين أعلن قادة الدول الرأسمالية الخمسة الكبرى (G 5) في مؤتمرهم في نوفمبر في رامبويه مراسيم دفن النظام الرأسمالي. وكان أهم هذه المراسيم هو فصل عملاتهم الصعبة عن قيمتها الرأسمالية وهو ما يعني بصورة آلية وآنية تعطيل دورة الإنتاج الرأسمالي المتمثلة بالمعادلة (نقد - بضاعة - نقد) إذ لا تعود البضاعة تساوي النقد والنقد لا يساوي البضاعة فالنقد يصبح ثابتاً والبضاعة وحدها هي المتغير، وهذا ما يعطل دورة الإنتاج الرأسمالي ولا تعود تعمل مرة أخرى. ثم لا رأسمالية بدون نقد حقيقي يحمل قيمة رأسمالية والقيمة الثابتة في النقد ليست قيمة رأسمالية حيث أن القيمة الرأسمالية تتغير دائماً وفقاً لشروط ظرفية متعددة.

ومن المراسيم الأخرى التي أعلنها رامبويه كان قرار مراكز الرأسمالية الخمس الكبرى بفتح خزائنها المترعة بالأموال لتعترف منها الدول النامية ما تشاء من أموال على شكل قروض بالرغم من أن الدائن يعلم تماماً أن المدين غير مليء أبداً إلا أن المركز الرأسمالي كان يضرب عصفورين بحجر واحد، تصريف البضائع المتكدسة لديه بعد أن فقد محيطاته أولاً، ثم إفشال المشروع الاقتصادي المستقل في الدول النامية ثانياً. خلال خمس سنوات 1976-1981 تضاعف حجم الديون الدولية خمسين ضعفاً فبعد أن كان 70 ملياراً من الدولارات وصل إلى حوالي 3000 ملياراً في العام 1982 حين أعلنت المكسيك إفلاسها. الدول النامية استوردت كل البضائع المكدسة في مراكز الرأسمالية واستهلكتها لكنها لم تعد قيمة هذه البضائع إلى المركز الرأسمالي والدولارات التي كانت تجسد قيمة هذه البضائع باتت مفرغة من كل قيمة وليس أكثر من قيد في الدفاتر - في مواجهة تلك الأزمة المالية اضطرت الولايات المتحدة إلى استجلاب رؤوس الأموال الأجنبية الحقيقية عن طريق رفع سعر الفائدة المصرفية السنوية على الودائع إلى ما يتجاوز 20%، وهذا وحده فقط يفي أسس الرأسمالية إذ ليس هناك مؤسسة رأسمالية تربح سنوياً ما يساوي 20% من مجموع رأسمالها بشقيه الثابت والمتغير.

في عشية الحرب العالمية الأولى كان ثمان دول استعمارية تقسم العالم كله، بريطانيا، روسيا، فرنسا، ألمانيا، السلطنة العثمانية، امبراطورية النمسا - المجر، الولايات المتحدة الأميركية واليابان. اشتعلت الحرب العالمية الأولى مستهدفة إعادة تقسيم المستعمرات تبعاً لعدم تكافؤ التنمية الرأسمالية في هذه الدول. وانتهت تلك الحرب الطاحنة إلى تفكيك أربع امبراطوريات استعمارية رجعية متخلفة وهي الامبراطورية العثمانية والامبراطورية الروسية القيصرية، والامبراطورية النمساوية - المجرية، والامبراطورية الألمانية الأكثر تقدماً. إختفاء تلك الامبراطوريات الاستعمارية شكل ضربة قاصمة للنظام الرأسمالي العالمي خاصة وأن روسيا القيصرية انقلبت إلى دولة اشتراكية تقود عمال العالم لتفكيك النظام الرأسمالي وإلغائه من أجندة العالم. يضاف إلى ذلك أن معاهدة فرساي التي عكست نتائج الحرب قد سدّت الطريق أمام الرأسمالية في ألمانيا نحو التطور والتنمية مما تسبب بانحرافها إلى الفاشية. أصابع المخابرات الإنجليزية شديدة الوساعة تدخلت في إيطاليا وفي ألمانيا كيلا تتفكك الرأسمالية فيهما لجهة الاشتراكية بل لتتحرف للعصبوية الفاشية. وعلى خلاف ما يعتقد الكثيرون ليست طوراً من أطوار التنمية الرأسمالية بل هي النقيض الفوضوي للنظام الرأسمالي عندما يعجز في التقدم، وهذا ما كان يؤكد هتلر باستمرار حيث طالما كرر القول أن مبادئ النازية هي ضد الرأسمالية. فمن شروط الرأسمالية الرئيسة هو مبادلة المركز فائض الإنتاج فيه بالمواد الخام في المستعمرة أو المحيط. الفاشية استهدفت نهب ثروات البلدان المحتلة دون مقابل على الإطلاق. مارس النازي النهب في جميع البلدان التي احتلها أثناء الحرب وأفاض الثروات المنهوبة على الشعب الألماني ولذلك اصطف الشعب صفاً واحداً وراء هتلر وهو ما لا يحدث في البلدان الرأسمالية. كان مثال هتلر الامبراطورية الرومانية التي قامت على نهب الشعوب ولذلك كان شعاره الأثير " الرايخ لألف عام " تقليداً لروما التي حكمت العالم لأقل من ألف عام. وليس عبثاً أن أعلن موسوليني إثر احتلاله للحبشة عام 1936 " تأسيس الإمبراطورية الرومانية الجديدة (The Foundation of The New Roman Empire)

السبب الحقيقي الأول وراء اشتعال الحرب العالمية الثانية المدمرة، والتي أحرقت تطور العالم ربما لقرنين، لم يكن النازية في ألمانيا والفاشية في إيطاليا رغم أنه السبب المباشر، بل هو الأصابع الإنجليزية الوسخة التي أسست للفاشية في إيطاليا في العام 1922 وللنازية في ألمانيا في العام 1932. كان من سخيرية الأقدار حقاً أن يبدأ الثنائي النازي - الفاشي هجومه الحربي على المحيط الإنجليزي، على الحبشة من قبل موسوليني 1936 وعلى بولندا من قبل هتلر 1939، رغم أن الثنائي المتصالح مع النازية ضد الشيوعية، الرئيس البريطاني تشيمبرلين والرئيس الفرنسي دالاديه، في مؤتمر ميونخ 1938 اعترفا باحتلال إيطاليا للحبشة وبضم النمسا لألمانيا كما قدما مقاطعة السويد من تشيكوسلوفاكيا عربون صداقة ومحبة لهتلر رغم أنهما متعهدان مع الاتحاد السوفياتي بالمحافظة على وحدة أراضي تشيكوسلوفاكيا، لكن العداء للشيوعية أعمى عيون تشيمبرلين ودالاديه.

خلال الشهور التسعة الأولى من الحرب التي امتدت ست سنوات استطاع هتلر أن يصفى أكبر امبراطوريتين استعمارييتين في القرنين التاسع عشر والعشرين وهما الامبراطورية البريطانية والإمبراطورية الفرنسية. ففي يونيو حزيران 1940 كان هتلر يحكم فرنسا من وسط باريس، ويحاصر إنكلترا وراء المانش ويقصفها بالطائرات ليل نهار. وما يجدر ذكره في هذا

السياق هو أن هتلر كان قد اقترح على ستالين في أغسطس أب 1939 الاشتراك في احتلال بريطانيا وتقسيمها بين الطرفين إلا أن ستالين تظاهر بأنه لم يسمع ذلك المقترح. فيما بعد العام 1940 لم يعد بإمكان كل من فرنسا وبريطانيا الإحتفاظ بمستعمرات فيما وراء البحار ليس بسبب تقزيمهما عسكرياً فقط بل واقتصادياً أيضاً. وهو ما أدى إلى جنوحهما إلى اليسار فكان الأمين العام للحزب الشيوعي الفرنسي، مورييس توريز، نائباً لرئيس مجلس الوزراء ووزيراً للأشغال، وكان في بريطانيا انتصار حزب العمال برئاسة كليمنت أتلي وهزيمة تشيرتشل رغم أنه كان القائد الانجليزي الأبرز الذي سجل النصر على هتلر باسمه في بريطانيا.

بانهيار أكبر إمبراطوريتين استعمارييتين، بريطانيا وفرنسا، انتهى الأمر إلى الولايات المتحدة الأميركية لتراث مختلف الموارث الرأسمالية الإمبريالية وتدافع عنها حتى النهاية بكل طاقاتها ومقدراتها. عندما بدأ جلياً أن شعوب أوروبا الغربية أخذت تميل إلى طريقة الحياة السوفياتية وقد بهرها، كما بهر العالم، صمود الجنود السوفيات وشجاعتهم في الدفاع عن بلادهم والمقدرات الهائلة التي قدمها الاتحاد السوفياتي في الحرب الماراتونية قياساً على مقدرات الدول الرأسمالية الكبرى فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة ثم على ألمانيا النازية ذاتها. إزاء اندفاع الشعوب الأوروبية نحو نمط الحياة الاشتراكية قامت الولايات المتحدة بما رتبته عليها الموارث الاستعمارية تعلن مشروع مارشال القاضي بتقديم مساعدات مالية كبيرة إلى دول غرب أوروبا مستهدفة مقاومة الشيوعية. قدمت الولايات المتحدة لدول غرب أوروبا، خلال أربع سنوات 1947 - 1951، ما مجموعه 12.5 مليار دولار قيمتها آنذاك تساوي قيمة ما يزيد على 500 مليار دولار اليوم. مع ذلك كان الاتحاد السوفياتي قد تجاوز كل مخلفات الحرب في العام 1951 قبل أن تتمكن دول غرب أوروبا من ذلك رغم أن الخسائر السوفياتية كانت أضعاف الخسائر الأوروبية.

كان من أهم نتائج الحرب العالمية الثانية ليس القضاء المبرم على النازية والفاشية وتطهير القارة الأوروبية من شرورهما، وليس تفكيك أكبر إمبراطوريتين استعمارييتين في العالم، بريطانيا وفرنسا، بل كان خروج الاتحاد السوفياتي من الحرب كأقوى قوة في الأرض. تلك النتيجة ترتب عليها تداعيات بالغة الأهمية والخطورة. لقد شكل الاتحاد السوفياتي بعد الحرب القاعدة العالمية الصلبة لانطلاق ثورة التحرر الوطني في العالم فكان أن نجحت كافة الدول المستعمرة والتابعة ومنها دول كبرى كالصين والهند، نجحت في فك روابطها مع المراكز الرأسمالية الإمبريالية وحصولها على الاستقلال التام ما بين 1946 و 1972 حين أعلنت الأمم المتحدة رسمياً إنتهاء الاستعمار في العالم.

الربع الذي يستولي على الرأسماليين من شبح الشيوعية يُذهب عقولهم. هكذا كان الحال مع الرأسماليين الأمريكيين. لقد جُن جنون الأمريكيين في مقاومة الشيوعية حتى ليخالهم المرء ليسوا رأسماليين. طبيعة الرأسمالي أن يستنزف الأموال من الشعوب المحيطة غير أن الصورة مع الولايات المتحدة وهي الوارث الشرعي الوحيد للرأسمالية الإمبريالية وحامي حماها، كان العكس تماماً. الولايات المتحدة وهي مركز الرأسمالية العالمية كانت تضخ الأموال من المركز إلى المحيطات عكس طبيعة الرأسمالية. ضخت 12.5 مليار دولار إلى أوروبا الغربية مع نهاية الأربعينيات وفي العام 1951 ضخت بضعة مليارات في اليابان عندما بدأ أن نقابات العمال الشيوعية توشك على الاستيلاء على السلطة. وعادت في الستينيات تضخ الأموال إلى ألمانيا الغربية عندما بدأ أن ألمانيا الشرقية تتفوق اقتصادياً على الغربية. وضخت عشرات المليارات في تصنيع " نمور " جنوب شرق آسيا التي كانت كوريدورات مشرعة للنوافذ للتيارات الشيوعية. إزاء مثل هذه الصورة يمكن القول أن أميركا قد استنفذت ذاتها في مقاومة الشيوعية حتى وصل بها الأمر إلى إعلان عجزها المالي في العام 1971 في غمرة حربها على فيتنام. كان الرأسماليون الأمريكيين المرعوبون من شبح الشيوعية يقاومون أميركا وليس الشيوعية فالشيوعية بدأت بالانهيار عندما كانت في أوج قوتها وكان ذلك بسبب تناقضات داخلية لا علاقة لأميركا بها. بل ليس خطأ الافتراض أنه لو لم تعمل أميركا على مقاومة الشيوعية المتمثلة رسمياً بالاتحاد السوفياتي لانهار الاتحاد السوفياتي في العام 71 بدل 91 وذلك لأنه بمقدار ما يحند التناقض الخارجي بمقدار ما يتعطل التناقض الداخلي عن العمل. كانت البورجوازية الوضيعة السوفياتية التي شرعت بثورتها المضادة في سبتمبر أيلول 1953 ستكشف عن وجهها القبيح في العام 71 لو يسرت الولايات المتحدة لها الأمور.

حظي الشيوعيون بمعلمهم كارل ماركس الذي علمهم أبجدية لغة التاريخ التي تقول أن التاريخ يتقدم بالتوافق مع تقدم قوى الإنتاج. من المعيب حقاً أن عامة الشيوعيين اليوم يبدون جهلاً فاضحاً في قراءة لغة التاريخ وقد انقسموا إلى فريقين متميزين في القصور اللغوي. فمنهم من يعتقد أن التاريخ عاد ليتوقف عند منتصف القرن التاسع عشر عند صدور البيان الشيوعي حين كان التناقض الرئيس على المسرح الدولي هو التناقض الرأسمالي (عمال/رأسماليون) وأن المحطات التاريخية الكبرى فيما بعد العام 1848 لم تغير في الأمر شيئاً!! إنه القصور الشائن حقاً أن يتجاهل الشيوعيون الآثار البارزة التي خلفتها كومونة باريس وفشلها التراجيدي 1873، الحرب العالمية الأولى 1914، وانبثاق الثورة الاشتراكية

1917 وقيام الاتحاد السوفياتي الجبار والمعسكر الاشتراكي الذي ضمّ نصف العالم تقريباً، ثم الحرب العالمية الثانية 1939-1945 التي رسمت الخريطة الجيوسياسية لعالم اليوم، ثم انفجار ثورة التحرر الوطني 1946 - 1972 التي شملت العالم كله وأدت إلى نهاية الإمبريالية وفقدان مراكز الرأسمالية لجميع محيطاتها، وأخيراً محطة انهيار المعسكر الاشتراكي 1991. الشيوعي الذي لم يعد يحسن لغة ماركس ويعتقد أن الصراع الطبقي بالغ الدموية في القرن العشرين، وقد أدى إلى مقتل زهاء مائة مليون إنسان، كأنه لم يكن، وأن حال العالم اليوم هو نفس حاله في منتصف القرن التاسع عشر، مثل هذا الشيوعي هو بالمحصلة رجعي وعقبة صلبة أمام تقدم العمل الشيوعي.

أما الفريق الآخر الذي لم يعد يحسن القراءة الماركسية فهو الفريق الذي لم يتردد بالخروج من دائرة العمل الشيوعي مفضلاً ألا يكون عقبة صلبة أمام تقدم العمل الشيوعي مثل الفريق الأول وانتهى إلى العمل الوطني ويعلن قبوله بالمجتمع الطبقي وباستغلال العمال ولكن بصورة عطوفة ولا غرو فقد تعلم هؤلاء النبل في المدرسة الشيوعية. أهدافهم هي ذات الأهداف البورجوازية، الديمقراطية والتعددية وتداول السلطة. لا يشين هؤلاء البورجوازيين الوضعاء سوى اختطافهم اسم "الشيوعي" لأحزابهم التي لم تعد شيوعية وهو عمل انتهازي يقرّون به من أجل إضفاء الصدقية والشرف على أحزابهم جاهلين أو متجاهلين أن الأحزاب التي تقبل بالتعددية وهو ما يعني الطبقة التي تقوم أساساً على استغلال العمال ليست بحاجة لصدقية أو لشرف.

(8)

فريق الشيوعيين من الذين انقلبوا إلى وطنيين وإصلاحيين بادعاء أن لديهم مسؤولية في إصلاح أحوال الوطن وتحسين حياة الشعب وغالبية من فقراء البورجوازية الوضيعة، وهي مسؤولية لم ينطها بهم أحد حتى ولا البورجوازية الوضيعة موضوع إهتمامهم المستجد، هؤلاء الذين أخرجوا أنفسهم من دائرة العمل الشيوعي، رغم احتفاظهم باسم الشيوعية، بسبب إفلاسهم الفكري والسياسي مثلما هي الأحزاب الشيوعية التي ما زالت قائمة ولو اسماً في البلدان التي لم تعد نامية كالبلدان العربية، هؤلاء لم يعودوا بالطبع في دائرة اهتمام الشيوعيين خاصة وأن دعاوهم في الديمقراطية والتعددية وتداول السلطة إنما هي دعاوى للتبرير وللتضليل ولا تستند لأدنى مقدار من الواقعية. ففي المجتمعات الطبقة وخاصة تلك التي لم تتبلور طبقياً بعد لا تقوم أية دعوى من هذه الدعاوى الخيالية السقيمة. لكل ذلك لا يملك الشيوعيون إلا أن يتركوا هؤلاء المرتدين إلى العمل الوطني والإصلاحي إلى خيبتهم.

أما الفريق الآخر من الذين عادوا يرطنون لغة البيان الشيوعي المجردة في الثورة الاشتراكية في العام 1848 دون أدنى اعتبار للتحويلات الاجتماعية العميقة التي اعترت مختلف المجتمعات في العالم وخاصة تلك المجتمعات الرأسمالية المتقدمة التي اعتمدها ماركس لتغيير العالم من خلال الثورة الاشتراكية، فلنا مع هذا الفريق كلام عميق طويل في علوم الماركسية والتي هي دائماً، لسوء حظنا كبروليتاريا وحظ ماركس معلم البروليتاريا، علوم صعبة ومعقدة.

نحن كماركسيين يتوجب علينا أن نقلد ماركس حتى قبل أن نفهمه. شكل ماركس الأممية الأولى في العام 1864 بهدف التحضير للثورة الاشتراكية العالمية المرسومة في البيان الشيوعي (المانيفستو) في العام 1848. وفي العام 1873 وإثر الفشل الفاضح للبروليتاريا الفرنسية في كومونة باريس قام ماركس بحل الأممية ولم يعد يشكل بديلاً لها طيلة السنوات العشرة المتبقية من عمره. لعل ماركس بمعايير هذا الفريق "الثورجي" لم يعد شيوعياً بعد العام 1873 !! لكنه في العام 1875 كتب رائعته وحجة الشيوعيين الأولى وهي "نقد برنامج غوتا" وظل منهماكماً خلال تلك الفترة بكتابة الجزء الثالث من كتابه الشهير "رأس المال" وفي العام 1882، قبل رحيله ببضعة أشهر فقط، كتب مقدمة البيان الشيوعي باللغة الروسية مؤملاً أن تقدر شرارة الثورة الاشتراكية في روسيا لتمتد إلى البلدان المتقدمة في أوروبا الغربية، وهو ما يشي أن ماركس ذا الحس الثوري المرهف بات متوجساً من صعوبة تفجر الثورة الاشتراكية في أحد البلدان الرأسمالية المتقدمة، ليس مثل الفريق الذي نحن بصدد الحديث إليه المستعجل الثورة الاشتراكية حتى في بلدان هامشية متخلفة مثل البلدان العربية. بعد الفشل المريع للبروليتاريا باريس في الكومونة في العام 1871 لم يقم ماركس بأية أعمال ثورية لأنه تعلم من الكومونة أن بروليتاريا العالم لم تكن على وعي كافٍ يؤهلها للقيام بثورة اشتراكية.

ما أحوج الماركسيين بعد "فشل" ثورة أكتوبر الاشتراكية أن يقلدوا كارل ماركس بعد فشل كومونة باريس. على الشيوعيين أن يتعلموا الدروس من انهيار المشروع اللينيني في ثورة أكتوبر قبل أن يفكروا بأي مشروع آخر. من الغريب حقاً، بل ومما يثير التساؤل المستوجب الإجابة، هو أن عامة الشيوعيين في الفريقين المشار إليهما إعلاه يتناسون انهيار المشروع اللينيني وكأنه لم يكن ودون أن يعتبروا منه رغم أنه سبب وجودهم، الأمر الذي يدل على أنهم لم يكونوا قط شيوعيين حقيقيين؛ ينهار مشروعهم بسبب وجودهم دون أن يسألوا لماذا؟! هذه مسألة كشافّة، تكشف أموراً في غاية الخطورة.

انتهى هؤلاء الشيوعيون إلى الحديث بلغة البيان الشيوعي لعام 1848 ولكأنما ما يزيد على قرن ونصف القرن من الصراع الطبقي المتلاحم بمختلف صنوف الأسلحة، الصراع الذي كلف البروليتاريا عشرات ملايين الضحايا، كأنه لم يأت بجديد!! لا أيها السادة "الثورجيون" !! هذا ليس من الماركسية بشيء !! ماركس لن يقبل منكم مثل هذا الابتذال في لغته!! تفجرت الثورة الإشتراكية في روسيا القيصرية الممتدة على طول قارتي آسيا وأوروبا وتطورت هذه الثورة سريعاً حتى غدا الإتحاد السوفياتي يمسك بزمام العالم لقرن طويل ليس مثله كل القرون الأخرى، قرن مليء بالحروب وبالثورات وبالأحداث. فهل انهار الإتحاد السوفياتي في العام 1991 ليعود العالم إلى ما كان عليه في العام 1848؟! قام المشروع اللينيني في الثورة الإشتراكية العالمية تأسيساً لتفكيك الرأسمالية العالمية وذلك عن طريق تطوير تناقضات النظام الرأسمالي الثلاث المعروفة كما قدمها ستالين في "أسس اللينينية". ولنا أن نفخ هنا عند التناقض بين المركز والمحيط في النظام الرأسمالي. فمن بين الشروط التي اشترطها لينين على أحزاب الأممية الثالثة (Comintern) لدى تشكيلها في مارس آذار 1919 كان اشتراطه على الأحزاب الشيوعية في البلدان المحيطة تأييدها المطلق للبورجوازية الوطنية الثائرة ضد الإمبريالية من أجل التحرر والاستقلال، وبغير هذا الشرط فلن تقبل تلك الأحزاب في عضوية الكومنتيرن. تحقيقاً لذلك الشرط اللينيني كان إصرار ستالين على ضرورة تجاوز الحزب الشيوعي الصيني خلافاته مع الكومنتانغ وتشان كاي تشك خلافاً لسياسة ماوتسي تونغ. نتوقف أمام هذه الحقائق التاريخية لنستدل على أن الهدف الأول والمباشر للمشروع اللينيني هو تفكيك النظام الرأسمالي العالمي الذي هو دون شك فاتحة انتصار الثورة الإشتراكية العالمية. ولنستدل أيضاً على أن لينين أولى ثورة البورجوازية الوطنية في الأطراف دوراً كبيراً في تفكيك النظام الرأسمالي العالمي. فهل نجح مشروع لينين في تحقيق هدفه الأول والمباشر؟ الفريق "الثورجي" الذي عاد يرطن بلغة البيان الشيوعي يقول أنه لم ينجح وما زال النظام الرأسمالي العالمي يمسك بخناق العالم، كما في لغوهم البغو.

طالما أن هذا الفريق "الثورجي" مصرّ على إنكار كل دور للمشروع اللينيني الذي تجسد بالاتحاد السوفياتي الجبار والمعسكر الإشتراكي في تغيير العالم في بنيته الاقتصادية والسياسية، فلنا إذّاك أن نسأله عن الأثر الذي تركته ثورة التحرر الوطني التي انبثقت عن نتائج الحرب العالمية الثانية حيث انتهت الحرب إلى انهيار أكبر إمبراطوريتين استعماريّتين، بريطانيا وفرنسا وإمبراطوريتين أخريين ليستا إمبرياليّتين لكنهما طامحتان لاستعباد العالم كما استعبدت روما العالم القديم، وهما ألمانيا وإيطاليا، كما انتهت إلى خروج الإتحاد السوفياتي كأقوى قوة في الأرض، نسأل هذا الفريق الثورجي عما أنجزته ثورة التحرر الوطني العالمية التي اجتاحت آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، وعما لم تنجز؟

بحكم مجريات الثورة وحصول سائر الدول الطرفية على الاستقلال تقطعت الروابط التي تربط المحيط بالمركز الرأسمالي وفقد المركز الرأسمالي بذلك كل فرصة في التخلص من فائض الإنتاج المتحقق فيه عن طريق تصديره إلى خارج الحدود، كما فقد إمكانية تبديل فائض الإنتاج بالمواد الخام في المحيط اللازمة لصناعاته. وهكذا لم يعد المركز الرأسمالي مركزاً وهو ما أدى إلى انهيار النظام الرأسمالي الذي خُلِقَ خلويّاً ذو مركز ومحيط ولا يمكن أن يكون بغير تلك الحلقة كما يعتقد العولميون.

يخرج نفر من هذا الفريق المفتر للحد الأدنى من علوم الإقتصاد السياسي ليّدعي أن النظام الرأسمالي انتقل إلى مرحلة أعلى من الإمبريالية التي عاصرها لينين وهي العولمة - كان خروشتشوف قد ادّعى في تقريره للمؤتمر الثاني والعشرين للحزب الشيوعي عام 1961 أن لينين لم يعايش مثله الشركات الكبرى المتعددة الجنسيات - حيث انتقلت الشركات الرأسمالية من المركز إلى الأطراف وفيها المواد الخام والعمل الرخيص. مثل هذا النفر المفلس لا يحتاج من أجل الوصول إلى الحقيقة بل للدفاع عن أخطائه. هذا الفريق الغبي لم يسأل نفسه عن فائض الإنتاج الذي أخذ يتحقق في المحيط بعد العولمة. كيف يتم تصديره إلى المركز - وهو ما يتحقق اليوم - فينقلب المحيط مركزاً والمركز محيطاً؟! الإقتصاد ليس لعبة تك تاك أو بونغ بونغ. المركز وبعد أن فقد عماله ووظائفهم لا يمكن أن يبقى قادراً على امتصاص فائض الإنتاج في المحيط. أميركا تمتص اليوم كل فائض الإنتاج في الصين واليابان وكل بلدان شرق آسيا بل والعالم كله لأنها لم تعد رأسمالية. لو ظلت رأسمالية ولو بمقدار لكان لديها فائض إنتاج تبحث عن تصديره لا أن تستورد فائض إنتاج الآخرين. تستورد أميركا اليوم فائض الإنتاج في معظم بلدان العالم بشكّلين مناقضين لطبيعة الرأسمالية أحدهما شكل شرعي وهو الاستدانة فأمريكا مدينة اليوم بأكثر من 400% من مجمل إنتاجها الوطني منها حوالي 17.5 ترليون دولاراً ديون خارجية وهو ما يعادل 150% من مجمل إنتاجها الوطني دفترياً فقط أما في الحقيقة فهو نحو 700% منه حيث إنتاجها المادي لا تزيد قيمته عن 2.5 ترليون دولاراً والباقي خدمات لا تسد أية ديون. والشكل الثاني غير الشرعي وهو تزييف الدولار إذ تصدر عشرات مليارات الدولارات غير المغطاة وتبييعها إلى العالم بقيمتها الإسمية بينما قيمتها الفعلية تقارب الصفر. الرأسمالي الحقيقي لا يقوم بمثل هذا العمل الشائن ولو كان مخادعاً حيث قيمة النقد هي قدس أقداس الرأسمالي وهدفه الأخير في الحياة وهو لن يقبل أن تنتهي أهدافه إلى زيف.

ما يعتبر منطق هؤلاء القوم هو أن أحداً منهم لم يقل " الصين الرأسمالية " أو "الهند الرأسمالية" أو "تايلاند الرأسمالية". فقط أميركا هي الرأسمالية بل حصن الرأسمالية الإمبريالية الوحيد في هذا العالم. والحجة الوحيدة لمثل هذا الإدعاء الأجوف هي أن أصحاب الشركات المهاجرة إلى الأطراف يحملون جوازات سفر أمريكية. أصحاب مثل هذا الإدعاء يتذكرون جوازات السفر الأمريكية التي يحملها أصحاب الشركات المهاجرة لكنهم لا يتذكرون جوازات السفر الأمريكية التي يحملها العمال الذين قعدوا بلا شغل بعد رحيل الشركات التي كانوا يعملون فيها. ما شأن لون جواز السفر والكتابة فيه بالإنتاج الرأسمالي؟! جنسية صاحب المصنع لا تجنّس المصنع بل جنسية العمال هي ما تجنّسه. المصنع الذي يملكه أمريكي في الصين هو مصنع صيني والعكس صحيح أيضاً. المصنع يخضع لقوانين الدولة حيث يعمل بما في ذلك قانون الضريبة. المصانع التي يملكها أمريكيون في الصين لا يستفيد منها الشعب الأمريكي ولو دولاراً واحداً.

جميع الصناعات الرأسمالية القابلة للهجرة هاجرت من المركز الأمريكي إلى المحيط وبذلك لم يعد المركز الأمريكي مركزاً دون أن يصبح الطرف مركزاً بديلاً حيث بناء المجتمع الرأسمالي عملية تاريخية لها شروطها الخاصة التي لم تعد موجودة. وهنا يقوم تلقائياً سؤال فيصّل ما بين الحقيقة والوهم، ما بين المسار التاريخي القويم والمسار المنحرف، وبالتالي بين مسيرة البروليتاريا ومسيرة البورجوازية الوضيعة. والسؤال الفيصل هو .. كيف للشعب الأمريكي وبعد أن فقد الجزء الأعظم من صناعاته الرأسمالية ما زال قادراً على امتصاص معظم فائض الإنتاج في الكثير من دول العالم؟ الجواب المباشر لهذا السؤال الفيصل هو أن أميركا لو لم تفقد معظم صناعاتها الرأسمالية لما كانت مؤهلة لامتناس كل هذا الحجم الهائل من فوائض الإنتاج في العالم.

ثمة من هم فقراء في علم الإقتصاد يجيبون على هذا السؤال الكبري بالقول .. صحيح أن عشرات ملايين العمال الأميركيين (حوالي 40 مليوناً) فقدوا وظائفهم نتيجة للعولمة ونزوح المصانع الرأسمالية إلى الأطراف لكن هؤلاء لم يقعدوا بل تحول جميعهم إلى العمل في إنتاج الخدمات حتى أن نسبة البطالة في العام 2000 لا تتجاوز نسبتها في العام 1960 أيام ازدهار الصناعات الرأسمالية. يفوت هؤلاء القوم مسألتان حديتان وعلى درجة كبيرة من الأهمية في علم الإقتصاد ..

- الخدمات ليست من الثروة بشيء ولا تمتلك قيمة مادية قابلة للتبادل حيث يتم استهلاكها تماماً لحظة إنتاجها ولا تصل منفردة إلى السوق لتكتسب منزلة "السلعة الصنم". جيشاً بحجم الجيش الأمريكي، يجند ملايين الرجال، يستطيع أن يحتل بلداً ثرياً وينهب ثرواته لكن هذا الجيش ينهب الثروة ولا ينتجها فهي من إنتاج الشعب المحتل المنهوب. الخدمات تستهلك الثروة ولا تنتجها. وعليه فلو أن عشرات الملايين من منتجي الخدمات توقفوا تماماً عن الإنتاج لما اضطرت الولايات المتحدة إلى أن تتكبد كل هذه المديونية الفاحشة. الحقيقة الإقتصادية التي لا مرأى فيها هي أن الخدمات تكشف العملة الوطنية ولا تغطيها.

- الخدمات ليست منتوجاً رأسمالياً بحال من الأحوال فهي إنتاج فردي في كل الأحوال وتتم مبادلتها مستقلة تماماً عن إنتاج كل فرد آخر حتى وإن بيعت لصاحب عمل يومياً أو شهرياً مثل عمل طبيب في مستشفى براتب معلوم حيث الخدمات التي يقوم بها هذا الطبيب لا تعرض في السوق وليس لها قيمة تبادلية إذ يجري تحديد بدلها قبل إنتاجها ويتحدد أجر الطبيب تبعاً للمعرفة (know-how) وليس للعمل/ساعة كما في استئجار العمال، وهي لذلك لا تنتج فائضاً للقيمة لصالح رب العمل.

الحقيقة الكبرى التي يتجاهلها المفلسون سياسياً بعد أن سقطت كل شعاراتهم وأختزلت اليوم بإسقاط الرأسمالية الإمبريالية الأمريكية دون معرفة الهدف من إسقاطها، الحقيقة الكبرى التي من شأنها أن تقلب الخطاب السياسي المعمم اليوم رأساً على عقب هي أن الرأسمالية العالمية قد انهارت تماماً في سبعينيات القرن الماضي وما نزع منها من المركز إلى الأطراف لا يمثل إلا الرأسمالية وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة. عندما أفلس دونكيشوت حارب الطواحين، فليس غريباً أن يحارب السياسيون المفلسون اليوم طواحينهم في الرأسمالية الأمريكية. إفلاسهم لا يمكنهم من أن يروا الولايات المتحدة لا تنتج غير الخدمات وهي نقيض للرأسمالية، وأن يروا أن البروليتاريا الأمريكية التي كانت تعد في خمسينيات القرن الماضي حوالي 75 مليوناً هي اليوم لا تزيد عن 32 مليوناً، وأن أميركا بحاجة معاشية لأن تستدين من العالم كل عام زهاء ألف مليار دولاراً، وأنها تمارس تزيف عملتها على نطاق واسع، وأنها تدفع سنوياً زهاء 100 مليار دولار فوائد سنوية على سندات خزينتها للأجانب. أميركا توشك على الانهيار في القريب العاجل والمفلسون سياسياً لا يرون أميركا إلا العدو الرأسمالي الإمبريالي الذي يحول دون تحقيق سياساتهم رغم أنهم تنازلوا عن تلك السياسات وأهدافها وسدّت كل السبل أمامهم فعادوا يستعطفون الأجنبي ليوظف أمواله في بلدانهم المستقلة سياسياً ويستغل العمال مواطنهم. هذا هو نمط التنمية المتاحة اليوم بعد انهيار نمط الإنتاج الرأسمالي والاشتراكي.

المعسكر الاشتراكي الذي لم يعد اشتراكياً، والمعسكر الرأسمالي الذي لم يعد رأسمالياً اجتماعياً ملتصقين ليشكلا الممر المحكم الإغلاق إلى المستقبل. لا يمكن عبور هذا الممر المحكم الإغلاق قبل التعرف على عناصر تركيبته. تلك هي القضية.

(9)

كثيرون هم الذين استهجنوا قولي أن مسيرة البشرية في التطور هي اليوم معطلة بسبب الظروف السائدة وأولها علاقات الانتاج غير الطبيعية والشاذة والتي تعمل على إضعاف قوى الانتاج وتهميشها والتي هي المحرك الوحيد للتطور والتقدم الاجتماعي والحضاري. هؤلاء المستهجنون هم من المتهنئين للسياسة وليس لديهم مهنة أخرى والممر المحكم الإغلاق في هذه الحالة من شأنه أن يفقدهم مهنتهم الوحيدة ويضيق بالتالي مستقبلهم. البشرية لا تأبه بمستقبل البورجوازية الوضيعة أكانوا شيوعيين بالدمغة أم غير شيوعيين. من واجب الماركسيين الأقياح وبحكم مسؤوليتهم التي ارتضوها لأنفسهم تجاه مستقبل الإنسانية أن يقفوا طويلاً وطويلاً جداً أمام هذا الإغلاق المحكم للبحث في عناصر تركيبته التي معرفتها الدقيقة وحدها تمكن من تفكيك مثل هذا الإغلاق الفريد عبر التاريخ.

عندما يكتب الماركسي من باب التخمين والتخرف يفقد إدعائه الماركسية. كتابتي عن الممر المحكم الإغلاق إلى المستقبل ليست من باب التخمين والتخرف فهي تستند إلى التحليل الماركسي الواعي للوقائع على الأرض. يقول لنا كارل ماركس أن التقدم الاجتماعي للمجتمعات البشرية عبر التاريخ ينطلق من قاعدة واحدة وهي التناقض بين قوى الإنتاج من جهة وعلاقات الإنتاج من جهة أخرى، أي تلك العلاقات التي يقيمها أفراد المجتمع بين بعضهم البعض كي ينتجوا. الإنتاج، وهو سبب الحياة للبشرية، يتطور ويتعاطم وفق تطور وتعاطم القوى الفاعلة فيه، قوى الإنتاج، وهي قوى العمل (العمال)، والآلات والمكانن والطاقة الصناعية غير العضوية. تنمو وتعاطم قوى الانتاج دون توقف كما هو ديدن البشرية جمعاء، ولذلك فإن علاقات الإنتاج التي كانت تتناسب مع قوى الانتاج في مرحلة سابقة لا تعود مناسبة في مرحلة لاحقة حققت خلالها قوى الإنتاج تطوراً ملحوظاً وهو ما يستوجب تغيير علاقات الإنتاج وإلا غدت هذه العلاقات سداً منيعاً أمام نمو وتطور قوى الإنتاج الذي لا تقبل به الطبيعة البشرية.

الرأسمالية فيما بعد انهيار أكبر إمبراطوريتين استعماريتين، بريطانيا وفرنسا، بفعل الحرب العالمية الثانية وانفجار ثورة التحرر الوطني في العالم كله بعد الحرب مباشرة، لم تعد الرأسمالية تعطي أرباحاً لأكثر من سبب؛ أولها بالطبع فقدان المحيطات حيث كانت مراكز الرأسمالية تتخلص من فائض إنتاجها، ومنها أيضاً تنامي الطبقة الوسطى حتى استلمت السلطة وشكلت دولتها الخاصة بها، دولة الرفاه (Welfare State)، عوضاً عن الدولة الرأسمالية. ولما كانت الطبقة البورجوازية الوضيعة لا تنتج غير الخدمات التي لا تجدد قوى العمل (Labour Power) مهما تنوعت أشكالها، قوى العمل التي هي مادة الثروة وسببها الوحيد، لذلك استحال على دولة الرفاه أن تتدبر أمرها بغير الاستيلاء على قسم متزايد من إنتاج العمال. مع استمرار سياسة الرفاه والاستيلاء أكثر فأكثر على إنتاج العمال، عن طريق فرض الضرائب المتنوعة وضريبة المبيعات المتزايدة، تدهورت الصناعات الرأسمالية الأمر الذي أدى ليس إلى تضائل فائض القيمة فقط الذي هو مبعث تطور النظام الرأسمالي، بل وإلى التراجع الفعلي لأجور العمال أيضاً. لم يعد من مناص أمام الصناعات الرأسمالية في ظل دولة الرفاه سوى التوقف عن العمل أو الهجرة إلى الأطراف حيث لم تتواجد دولة الرفاه أصلاً وحيث العمالة الرخيصة والمواد الخام وفي كلتا الحالتين يظل عمال المركز بلا وظائف ليتحولوا مرغمين إلى إنتاج الخدمات. هكذا كانت العولمة (Globalization) التي أساء تفسيرها المحللون والإقتصاديون البورجوازيون على اعتبار أنها مرحلة أعلى من مراحل الرأسمالية؛ وزادوا في ذلك فقالوا بقدره الرأسمالية على تجديد نفسها بنفسها، بينما حقيقة الأمر هي العكس تماماً مما ادّعي هؤلاء القوم البورجوازيون. إنها في الواقع سكرات الموت للنظام الرأسمالي، فأطراف مراكز الرأسمالية غير مؤهلة بفعل تركيبته الطبقيّة والاقتصادية لأن تنقلب بين عشية وضحاها لتكون مراكزاً للرأسمالية. البنية الاقتصادية الرأسمالية بنية تاريخية تشكلت تحت ظروف تاريخية لم تعد قائمة. وهكذا ماتت الرأسمالية كنظام عالمي يمسك بزمام العالم منذ سبعينيات القرن الماضي.

خدیعة حواء لأدم التي ألفت بالجنس الأدمي إلى عالم الخطيئة والآثام، كما في الأسطورة، لم يماثلها في الأرض سوى جريمة العسكرية السوفياتية التي انتصرت في الحرب على النازية الهتلرية وكانت تفتحها الشيطانية التي قدمتها إلى قيادة الحزب الشيوعي الغفل في سبتمبر 1953، بعد رحيل ستالين أو الأخرى ترحيله، هو إلغاء البرنامج الإقتصادي والسياسي الذي أقره الحزب في مؤتمره العام التاسع عشر في نوفمبر 1952، البرنامج الذي وعد الطبقة العاملة السوفياتية بالخير العميم، والاستعاضة عنه ببرنامج العسكرية السوفياتية المرتكز على التصنيع العسكري وحرمان الطبقة العاملة السوفياتية من إنتاجها ومردود عملها الموعودة به سخياً كما في برنامج الحزب. تلك التفاحة المسمومة فتحت الطريق واسعة إلى

جهنم أمام البشرية جمعاء، واستُبدلت دولة دكتاتورية البروليتاريا بدولة دكتاتورية البورجوازية الوضيعة التي ما زالت قائمة في روسيا حتى اليوم. وما جرى في العام 1991 إنما هو إعلان هوية الطبقة الحاكمة الحقيقية التي ظلت مخفية منذ العام 1953 وليس انقلاباً كما صوّر إعلامياً وكما بدت صورته من الخارج. وليس أدل على ذلك من أن كامل أعضاء المكتب السياسي للحزب تقريباً ظلوا هم الحكام في جمهورياتهم الخمس عشرة بعد تفكك الاتحاد السوفياتي وإعلان هؤلاء الأعضاء في قيادة الحزب أنفسهم استنكارهم بكل وقاحة للشيوعية. وما يستوجب الإضافة هنا هو أن علاقات الإنتاج الهجينة التي فرضتها البورجوازية الوضيعة غصباً على المجتمع الاشتراكي غير قابلة بطبيعتها الهجينة إلى التحول إلى علاقات إنتاج رأسمالية كما تسيء القول بعض التحليلات الفجة.

أُسْتُكْمِلت هذه الجريمة التاريخية الشنعاء بحق البشرية جمعاء، والتي تسببت بخروج عربة التاريخ عن سكتها، بجريمة أخرى ترتبت عليها. فبعد أن تحقق دهاقنة الرأسمالية العالمية من انهيار نظامهم الرأسمالي المحتوم مع بداية سبعينيات القرن الماضي تنادوا إلى مؤتمر لهم في قلعة رامبويه/ باريس في نوفمبر 1975 حضره رؤساء الخمسة الأغنياء في العالم الرأسمالي (G 5)، ألمانيا وفرنسا وانجلترا وأميركا واليابان، واتخذوا أخطر قرار في تاريخ النظام الرأسمالي، قرار يقول للشعوب التي تحررت من نيرهم الاستعماري .. طالما أنكم منعتمونا من استغلالكم بعد أن تحررتم من التبعية الاستعمارية فنحن بالمقابل نعلن متضامنين أن عملاتنا الخمسة ستعتبر منذ اليوم كما لو أنها ذهب خالص قيمتها الفعلية هي نفس قيمتها الإسمية دون أدنى اعتبار لما نملك من ذهب أو من أي غطاء آخر لها !!! هكذا كانت رصاصة الرحمة حتى لفظ النظام الرأسمالي أنفاسه الأخيرة. وهكذا كان ذلك القرار الطريقة الوحيدة المتبقية لنهب العالم من قبل الذين اعتادوا نهبه بالطريقة الإمبريالية. ممتهنو السياسة كلعبة يلعبونها مجردة من الصراع الطبقي يسيؤون فهم ذلك القرار وأبعاده اللامتناهية في علاقات الإنتاج. في النظام الرأسمالي الإمبريالي كان الرأسماليون ينهبون الشعوب من خلال مبادلة فائض الإنتاج المتحقق في المركز والمجسد لفائض القيمة، يبادلونه بالمواد الخام في البلدان الأطراف وبأسعار تفضيلية لصالح المركز بالطبع. أما اليوم وفيما بعد النظام الرأسمالي واعتبار عملات السادة الخمسة الأغنياء ذهباً، قيمتها بذاتها، وهي في الحقيقة شكلاً ومضموناً ليست أكثر من ورق، اليوم يتم نهب العالم تحت مظلة الدولار الزائف. ممتهنو السياسة كلعبة مستقلة بحد ذاتها، خلافاً لطبيعتها، لم يمايزوا بين النهب الإمبريالي والنهب من خلال النقد الزائف حيث الأول بالرغم من كل مساوئه إلا أنه لا يخلو من فوائد للبلد المنهوب أو المستعمرة حيث تقوم للضرورة صناعات تكميلية للصناعات في المركز كالصناعات الاستخراجية، على العكس من الثاني الذي يتم على حساب قوى العمل في البلد المنهوب إذ يتم نهب إنتاجها دون مقابل. الفرق كبير جداً ونوعي بين الحالتين ومواجهتهما مختلفتان كل الإختلاف. عدم التمييز بين الحالتين له تداعيات خطيرة أو حتى مصيرية وقاتلة.

في المؤتمر العام التاسع عشر للحزب الشيوعي في نوفمبر 1952 كانت الطبقة العاملة السوفياتية تتهاياً لتستأنف مسيرتها عبر برنامج طموح يعمل على تحويل طبقة الفلاحين إلى عمال وينتهي إلى الوصول إلى عتبة الشيوعية. عند ذلك المنعطف المصيري الخطير والحاسم هبت البورجوازية الوضيعة تقوم بثورة مضادة فتغتال ستالين في الأول من مارس 1953، وقبل أن يوارى جثمانه الثرى تلغي القيادة المشبوهة القرارات السياسية للمؤتمر العام للحزب متجاوزة كل الأنظمة والقوانين. وفي سبتمبر من ذلك العام النحس تلغي تلك القيادة، قيادة خروشتشوف، الخطة الاقتصادية لمؤتمر الحزب التي لا تنتهي في العام 56 قبل أن تكون البروليتاريا السوفياتية قد وصلت أوج قوتها عند عتبة الشيوعية فلا تسمح بأية إنتكاسة أو رجوع عن الاشتراكية. حينذاك، في ذلك المنعطف الحاسم، هبت طبقة البورجوازية الوضيعة تستولي على قيادة الحزب والدولة ولم تحرص كثيراً على إخفاء هويتها البورجوازية فشنت هجوماً وقحاً على باني الاشتراكية في أول دولة للعمال في التاريخ والقائد الاستثنائي العظيم لبروليتاريا العالم يوسف ستالين، وقامت في يونيو 57 بانقلاب عسكري بالتعاون مع وزير الدفاع المارشال جوكوف وطرد جميع البلاشفة من المكتب السياسي وهو أعلى سلطة في الدولة وعددهم أكثر من نصف أعضاء المكتب، قامت بذلك بعد أن صدعت رأس العالم بدعواها الديموقراطية نقضاً لدكتاتورية ستالين المزعومة ! وفي المؤتمر العام الاستثنائي للحزب في فبراير 1959 وقف خروشتشوف على منصة المؤتمر يعلن بخيانة صفيقة إلغاء دولة دكتاتورية البروليتاريا ليستبدلها بدولة البورجوازية الوضيعة وأسمها " دولة الشعب كله ". البورجوازية الوضيعة السوفياتية وطليعتها الجيش " الأصفر " لا الأحمر وضعت حداً لتطور البروليتاريا السوفياتية. الحقد الذي تكنه البورجوازية الوضيعة السوفياتية على البروليتاريا وعلى الاشتراكية فاق حقد النازية هتلرية.

الإفلاق ضد البروليتاريا في العالم الرأسمالي كان إقلاباً ناعماً في الظاهر إلا أنه في الحقيقة مؤلم ونازف. فدهاقنة الرأسمالية عندما اجتمعوا في رامبويه في العام 1975 قرروا قراراً غريباً، أغرب من كل غريب، قرروا أن لا قيمة لعمل العمال وأن النقد، ندهم، هو القيمة الكلية وأن إنتاج العمال يستمد قيمته من النقد. هم بذلك قلبوا المعايير المتعلقة بمفهوم النقد والتي تقول أن قيمة النقد تتأتى من قيمة البضاعة بل هو مجرد معايير لقيمتها. وهكذا تحول العمال إلى كتلة زائدة في المجتمع تنقل على كاهل مالكي النقود وهو ما يعني أن البورجوازية التي تملك النقود وتسكها هي التي تطعم البروليتاريا وليس العكس.

ماذا يعني كل هذا، سواء ما جرى في الاتحاد السوفياتي في الخمسينيات أو في الدول الرأسمالية في السبعينيات ؟ - هذا يعني تحديداً أن قوى الإنتاج المتنامية في المعسكرين حرمت من بناء علاقات إنتاج تتناسب مع درجة نموها وتسمح لها بالنمو المضطرد. من الغريب حقاً ومما لا يخطر في البال أن تحل محل علاقات الإنتاج الرأسمالية القديمة المستهلكة علاقات هجينة شوهاء هي الأخرى لعلاقات اللإنتاج وليست علاقات الإنتاج. هي علاقات من خارج دائرة الإنتاج، علاقات فرضتها البورجوازية الوضيعة بهدف تكريس سيادتها في المجتمع واستيلائها على القسم الأعظم من إنتاج الطبقة العاملة دون مقابل حقيقي. ما علاقة البورجوازية الوضيعة بالإنتاج الرأسمالي أو الاشتراكي؟ لا شيء، لا شيء على الإطلاق. البروليتاريا في العالمين الرأسمالي والإشتراكي تقوم بالإنتاج بعيداً عن كل ما يمت إلى البورجوازية الوضيعة بصلة. كانت البروليتاريا تقيم علاقات مباشرة مع الرأسماليين في العالم الرأسمالي ومع الدولة البروليتارية في العالم الاشتراكي للمشاركة في عملية الإنتاج. لكن لم يحدث ولا يمكن أن يحدث أن تقيم شراكة مع البورجوازية الوضيعة في الإنتاج.

"علاقات الإنتاج" القائمة اليوم في سائر المجتمعات هي علاقات هجينة لا علاقة لها بنظام الإنتاج المعمول به حيث بموجب القانون الإجتماعي تفرز قوى الإنتاج وفقاً لتطورها علاقات الإنتاج المناسبة لها. أما العلاقات القائمة اليوم فهي مستوردة من خارج قوى الإنتاج، وهي علاقات استهلاك وليس علاقات إنتاج، هدفها الأول هو الحؤول دون تطور قوى الإنتاج وتقديمها. البروليتاريا تنتج السلع بعيداً عن البورجوازية الوضيعة التي تنتج بدورها الخدمات بعيداً عن البروليتاريا أيضاً. وتقتضي الحاجة أن يتبادل الطرفان منتوجاتهما مباشرة، سلعاً مقابل خدمات، بعد أن كان التبادل بين الطرفين يجري عن طريق وسيط ثالث هو الرأسمالي الذي كان حديداً في تقدير قيمة الخدمات. لكن هذه المبادلة تجري اليوم تحت الضغط والإكراه فالخدمات بالكاد تضيف شيئاً إلى قوى العمل بينما السلع تستهلكها البورجوازية الوضيعة لتتحول بالكامل إلى خدمات، أضف إلى أن الخدمات ليست من الثروة بشيء، على العكس من السلع التي تكتنز كل الثروة. أسوأ ما في هذه المبادلة هو أن الخدمات ليست ذات قيمة معروفة ومحددة عبر ساعات العمل المبذولة في إنتاجها بل تبعاً لقيمة المعرفة المزعومة في السوق المنهارة غير الرأسمالية، والمعرفة ليست سلعة يجري تبادلها في الأصل ولذلك لا قيمة لها مجردة من الشغل. لكن في السوق اللارأسمالية، سوق البورجوازية الوضيعة تغدو ذات قيمة هائلة غير محدودة قد تصل إلى ألف ضعف من قيمة الشغل المبذول في تحقيقها. ومن هنا بنتا نجد أرهاطاً من الأطباء تحولوا إلى تجار عقارات ومضاربين في البورصة بعد أن باعوا للعمال معارفهم بذهب وفير ثم هجروا معارفهم الطبية ولم يعودوا يستخدمونها.

علاقات الإنتاج الرأسمالية كانت تسمح بتحويل فائض القيمة إلى مصانع جديدة وتحويل أعداد إضافية من الناس إلى عمال بروليتاريين. ولذلك قال ماركس أن الرأسماليين يحفرون قبورهم بأيديهم. بل وتسمح أيضاً في ظروف خاصة بزيادة أجور العمال وتحسين شروط حياتهم وشروط العمل. أما في علاقات الإنتاج الهجينة القائمة الآن والتي حلت محل شروط الإنتاج الرأسمالية فهي لا تسمح بأدنى شيء من كل هذا، لا بالتمدد الرأسمالي (Capitalism Expansion) ولا بتحسين أحوال العمل والعمال، بل العكس تماماً من هذا ما يتحقق، الإنكماش المتزايد للإنتاج الرأسمالي وانحطاط أحوال العمل والعمال.

عندما تفرز البورجوازية الوضيعة مبادلة خدماتها مع البروليتاريا بأضعاف قيمتها خارج السوق الرأسمالية ذلك يعني أن البورجوازية الوضيعة دفعت إلى السوق بقيم زائفة وهي الخدمات والنقود البديلة لها هي بالضرورة نقود زائفة. تزييف النقود، أي النقود التي لا تعبير قوة العمل ولا تمثلها أخذت تكون قانون العصر. فليس مراكز الرأسمالية الإمبريالية سابقاً فقط هي التي فرضت عملاتها الساقطة نقوداً من ذهب تحمل قيمتها بذاتها وهو ما يبسر لها نهب العالم من خلال مبادلة إنتاجه بنقود ساقطة لا قيمة لها، بل والبورجوازية الوضيعة في شتى أنحاء العالم أيضاً أخذت تزييف إنتاجها من الخدمات وتبيعه بأضعاف أضعاف قيمته الحقيقية أي أن لها نقدها الزائف أيضاً.

النظام العالمي اليوم أشبه بمغارة علي بابا والأربعين حرامياً. الطبقة العاملة في العالم تحول قوى العمل المتجددة فيها يوماً إلى ذهب على شكل سلع من كل الأنواع. يختزن العمال ذهبهم في مغارة تقوم مقام السوق. يأتي إلى المغارة علي بابا يحمل خلفه أكياساً من الأوراق الخضراء المطبوعة كدولارات. يحمل علي بابا (الولايات المتحدة) ما وسعت أكياسه الحَمْل من ذهب العمال بدل أوراقه الخضراء. الحرامية الأربعون الآخرون تعلموا من علي بابا فن السرقة فدولروا عملاتهم الوطنية وأخذوا يستبدلون نقودهم الزائفة زيف الدولار بالذهب من مغارة العمال. البورجوازية الوضيعة لها طريقها الخاصة بنهب الذهب من مغارة العمال فهي تبادل الخدمات عديمة القيمة التبادلية بالذهب من مغارة العمال. كل هؤلاء ينهبون ذهب العمال دون مقابل يعوضهم عن قوى العمل المبذولة في إنتاج ذهبهم. وهكذا تتخلف قوى الإنتاج ويتخلف العمال وتتكمش مساحتهم في المجتمع يوماً بعد الآخر وإلى ما لا نهاية.

قوى الإنتاج المتنامية التي عوّل عليها كارل ماركس لتقوم بالثورة الإشتراكية باتت اليوم بحال يرثى لها. مراكز الرأسمالية الكلاسيكية التي كانت تعج بمئات الملايين من البروليتاريا وتموّن العالم بفائض إنتاجها باتت اليوم تعج بالبورجوازية الوضيعة بدل البروليتاريا وبعجز متفاقم في الإنتاج وتحتاج العالم لأن يسد هذا العجز. وهكذا باتت البروليتاريا تواجه ممراً محكم الإغلاق إلى المستقبل. ما حيلة الماركسيين الشيوعيين طلائعي البروليتاريا أمام هكذا ممر مغلق. الشيوعيون قسراً

هم المسؤولون عن تفكيك هذا الإغلاق ليس لأنهم هم وحدهم طلائع البروليتاريا فقط، بل لأن من تسبب بداية بهذا الإغلاق المحكم كان فريقاً منهم وهو جيشهم "الأحمر" وعصابة المنحرف والمرتد خروشتشوف في قيادة الحزب الشيوعي السوفيياتي.

عبثاً يقال أن هذا الممر محكم الإغلاق إلى المستقبل وانكماش أعداد البروليتاريا أمامه لا يشيعان الشعور بالإحباط بين الشيوعيين. للحقيقة هما يعلان ذلك بصورة مأساوية خاصة وأن الإحباط يدهم أول من يدهم أولئك الذين لا يعون الأسباب الحقيقية لنشوء هذا الإغلاق المحكم للممر. الشيوعيون الذين لم يعوا تلك الأسباب أخذ الإحباط منهم كل مأخذ وانقلبوا إلى وطنيين يعنون بقشور السياسات المحلية من مثل الديموقراطية البورجوازية ومختلف الحقوق البورجوازية للإنسان. هؤلاء الوطنيون الجدد لم يعد يربطهم بالحركة الشيوعية أي رابط حتى وإن استخدم بعضهم اسم الشيوعية للخداع. أما أولئك الذين يعون الأسباب فإن ذلك يدفع بهم إلى إلزام أقوى حميمية بقضية البروليتاريا خاصة وأن قضيتها هي بالنهاية قضية إنسانية بامتياز.

فيا شيوعي العالم اتحدوا من أجل تفكيك الإغلاق المحكم للممر إلى المستقبل الشيوعي.

